

محمد عبد الله السمان

الإسلام وجهاً لوجه

الطبعة الأولى

القاهرة
مطبعة دار الكتاب العربي
١٩٥١

محمد عبد الله السمان

الاسلام وجهاً لوجه

الطبعة الأولى

القاهرة
مطبعة دار الكتاب العربي
١٩٥١

الطبعة الأولى { رمضان ١٣٧٠ هـ
يونيو ١٩٥١ م

إهداء

إلى الشباب المسلم الذى امتحن الله قلوبه للجهاد فى سبيل الإسلام ووطنه وشعوبه

إلى دعاة الفكرة الإسلامية الحية التى تنهض بالإسلام ديناً ودولة وشعباً

إلى الذين أوذوا فى سبيل عقيدتهم فصبروا ، وبغى عليهم فما وهنوا وما استكانوا

إلى المجاهدين الذين تآمرت عليهم قوى البغى فصمدوا ، وتكاثرت عليهم كتائب الباطل فثبتوا

إلى البررة الأبطال ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو الفضل العظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن مهمة دعاة الفكرة الإسلامية ، ليست وعظاً وإرشاداً ، وتبشيراً بالجنة وإنذاراً بالنار فحسب ، فهذه بضاعة قد تلقى رواجاً لدى الكتل البشرية من جهلة المسلمين المحسوبين على الإسلام زوراً ، وما أكثر هذه الكتل البشرية فى البلاد الإسلامية — وإنما مهمة دعاة الفكرة الإسلامية تبيان لمعانى الإسلام الصحيحة ، وتوضيح لأهدافه السامية ، وتبسيط لأوضاعه السليمة .

ولقد كتب على الإسلام أن يجابه العنت والمروق من يوم أن بزغت شمس ميلاده فى صحراء العرب ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولم يكن الله تعالى ليذره من غير سلاح يؤيده ويقذف به على الباطل فيدمغه وهذا هو وعد الله الذى لن يخلفه « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق .

واجه الإسلام من أول لحظة ظهر أفقه فيها ثلاث جبهات : الأولى عنيدة مستكبرة عز عليها أن يتنسم أنسمة الحياة لحظات ، والثانية حقيرة مرذولة ذات وجهين ، تواجه الإسلام بوجه ، وتواجه أعداءه بوجه ، والثالثة ضائعة مجهولة ، آثرت الحياد والصمت ، ولقد استطاع الإسلام أن يقرع الجبهة الأولى بالحجج القوية ، فمن أراد الخير فقد اهتدى ، ومن سيطرت على فكره شهوة العناد فقد تركه وشأنه ليلتقى به فى ساحة الجهاد ، وكان موقف الإسلام مع الجبهة المنافقة موقفاً حازماً يلين تارة

عسى أن تهتدى قلوبها ، ويشتد تارة أخرى فيفضح حالها ويخزى نفاقها عسى أن تتوب نفوسها ، أما موقفه من الجبهة المحايدة ، فقد كان موقفاً منطقياً هادئاً يرجو لها الخير والفلاح ، ويبسط لها دعوته بمبادئها القويمة علها تلبي وتستجيب . .

واليوم — يواجه الإسلام أيضاً جبهات ثلاث : جبهة استعمارية معادية سافرة فى عدوانها ، يفزعها أن تتحرك للاسلام نهضة ، وجبهة متنطعة تتصدى لحمل لوائه ، وهى لا تفقه شيئاً ، وتعرضه عرضاً زائغاً يتفق وأغراض المستبدين بلاد المسلمين ، ويلتقى مع أهواء المستغلين من المنتسبين إلى الإسلام ، وتضمن له الجمود والضياع إلى الأبد ، وجبهة راكدة تستعذب الركود ، ولا يحرك قلوبها أن يرتفع الإسلام ليبلغ القمة ، أو ينحدر ليستقر فوق الحضيض . تسلح الإسلام فى بادىء الأمر بالمنطق والحجة محاولا إقناع المعاندين ، وما يملك غيرهما ، ولكن حين قويت شوكته تسلح بالقوة التى تصد عن الدعوة كيد المتآمرين ، وتوجد حول منبتها حرماً آمناً — ونحن حين نحاول اليوم أن نعيد مجد الإسلام ووطنه مكتفين بالمنطق والحجة فقد قلبنا الأوضاع وطلبنا محالا ، فلم يشيد مجد الإسلام الأول بهما ، وإنما شيد بالجهاد والنضال ، وليس من التفكير السليم أن نثرثر فى إيجاد العدة دون أن يوجد الشعب الذى يقدر استعمال العدة ويقتنع بضرورة استعمالها ، ولن يوجد هذا الشعب إلا إذا وجد للاسلام دعاة يجيدون عرضه العرض اللائق به — وفى هذا الجهد المتواضع سأحاول — بعون الله وتوفيقه ، أن أضع الإسلام أمام الجميع وجهاً لوجه ، وأفصله ديناً ودولة ، ومصحفاً وسيفاً ، والله الموفق ؟

(القاهرة) محمد عبد الله السمان

الإســـــلام

دين ودولة

مصحف وسيف

« أَفَمَنْ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ، فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللّٰهِ ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

الإسلام الذى نؤمن به . .

قد يعترض معترض ويقول : ما هذا التفريق ؟ أهناك إسلامان ؟ إنه إسلام واحد يؤمن به الجميع . . !

ونحن نقول لهذا المعترض . . نعم إن الإسلام الذى حمل رسالته الداعية الأول ، صلوات الله وسلامه عليه — واحد حقاً ، واستمر واحداً إلى ما شاء الله ، ولكن جهالة بعض المسلمين استطاعت أن تجعل من الإسلام الصحيح إسلاماً زائفاً لا يرتضيه الله لعباده ، ولا يصلح لتحقيق المبادىء التى جاء من أجلها الإسلام الصحيح .

ولقد كان للطغاة الذين تولوا أمور المسلمين مسايرين أهواءهم دخل كبير فى إيجاد الطبعة الزائفة من الإسلام ، ونافسوا فى ذلك رجال الكهنة السابقين الذين غيروا وبدلوا فى التوراة والإنجيل بما يتفق وأغراضهم ، ويهيىء لهم طريق الأنانية البغيضة ، والرفاهية المتخمة ، والسيطرة الفاجرة ، والفرق بين رجال الكهنة السابقين وأولى الأمر الطغاة من المسلمين ، أن رجال الكهنة غيروا وبدلوا بأنفسهم نصوصاً صريحة : وكانوا أنانيين فى سرقتهم ، حريصين كل الحرص على أن يحولوا دون افتضاح أمرهم ، أما أولو الأمر الطغاة فلم يستطيعوا أن يغيروا أو يبدلوا نصوصاً صريحة ، لأن الشعب المسلم لم يعدم متيقظين فى كل عهد ، ولأنهم وجدوا فى التأويل متسعاً للتمويه بأضاليلهم ، ورأوا فى رجال الدين نفاقاً يضمن لهم تأييدهم والانتصار لهم ، ورأوا فى ضعف الشعوب المسلمة مجالا يساعد على سكوتها وتغاضيها واستسلامها . . نحن لا نؤمن — كما يؤمن بعض الناس —

بالإسلام عبادات وطقوساً ، ودجلا وشعوذة ، ومخدراً للشعوب المغلوبة على أمرها ، ومسكناً للعتمول التى تريد لأوطانها خيراً — ولكننا نؤمن به كدين يحرر العقائد من الزيف والضلال ، ويجمع البشر على عقيدة واحدة ، ويوجههم إلى معبود واحد ، وإلى قبلة واحدة ، ونؤمن به كدولة تجعل من الشعوب المختلفة فى ألوانها وألسنتها وأجناسها شعباً واحداً ، وتجعل من البلاد المتباعدة المترامية بلداً واحداً ، تعتنق مبدأ واحداً ، وتتحرك باسم قومية واحدة ووطنية واحدة . وتكافح تحت لواء واحد ، ونؤمن به كدستور ينظم حياة الناس ويهيمن على شئونهم ، ويحمى أعراضهم ودماءهم وأموالهم ، ويذب عن كرامتهم وحريتهم ، وينشر العدالة والمساواة بين صفوفهم ، ونؤمن به كجهاد يحصن الدولة ، ويحوطها بسياج من المهابة ، ويحفظ لها قدرها ، ويصد عنها كيد أعدائها ، ويجعلها فى أمان من الضعة والتخاذل والاستخفاف .

أجل : نحن نؤمن بالإسلام دينا ودولة ، ومصحفا وسيفا ، وهذه هى الأسس الأربعة التى استقر عليها بناء الإسلام ، والتخلى عن أساس واحد من هذه الأربعة يعرض البناء كله للتقويض والتداعى والانهيار ، وإذا كانت هذه الأسس البارزة الصريحة قد طمست معالمها اليوم ، وشوهت معانيها ، فليس للاسلام فى ذلك ذنب ، وإنما الذنب ذنب الشعوب المسلمة التى تهاونت فى أمر دينها وأسلمت القياد لزعماء وقادة لا يؤمنون إلا بالتزلف إلى المستعمر الغاصب ، ولو كان فى هذا ضياع دينهم وأوطانهم ، وذنب علماء الإسلام الذى كتموا الحق ولم يبينوه ، ولم يكتف المستعمر وصنائعه بطمس معالم الإسلام بل استطاع أن يمزق الدولة الإسلامية إلى دويلات هزيلة ، لا وضع لها ولا كيان . . ويبعثر الشعب المسلم إلى شعوب خائرة لا قدر لها ولا كرامة ، ولا عزة لها ولا سيادة .

دين

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ » .

إن الإسلام ثورة فكرية ما فى ذلك شك ، ولكنها ثورة تعتمد على العقل ، ويدفع إليها الإصلاح ، ويحركها الإخلاص ، وتختلف عن الثورات الفكرية ، فى أنها لم تكن وليدة مؤامرة خفية اشترك فيها أعضاء حفزهم إلى تدبيرها مصالح شخصية ، أو مطامع ذاتية ، أو حقد دفين ، أو زهو كاذب ، أو حماسة طائشة ، فثورة الإسلام ككل الثورات الدينية الفكرية التى سبقتها ، إلا أنها أعم وأشمل ، ولها طابعها الخاص ، وطبائع الثورات الدينية الإصلاح فى هدوء ، والنصيحة فى تريث ، وتجنب استعمال الشدة إلا إذا دعت الحاجة الماسة إليها — والأنبياء والرسل — وهم قواد الثورات الدينية — كانوا يعرضون دعواتهم فى أسلوب الناصح المشفق ، ويتقبلون التنديد بعقلياتهم ، وتسفيه آرائهم ، بصدر رحب وصبر وجلد ، وهذا ما حدث فعلا لنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم :

«لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم — قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين — قال يا قوم ليس بى ضلالة ، ولكنى رسول من رب العالمين — أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم ، وأعلم من الله ما لا تعلمون — أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون» . (الأعراف ٥٩ — ٦٣)

«وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون ، قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ، قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين» . (الأعراف ٦٠ — ٦٨)

«وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب — قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أتنهينا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب — قال يا قوم إن كنت على بينة من ربى ، وآتينى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ، فما تزيدوننى غير تخسير» . (هود ٦١ — ٦٣)

«وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنى أريكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط — ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين — بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ» . (هود ٨٤ — ٨٦)

ولم تكن ثورة الإسلام لتختلف كثيرا عن أخواتها ، ولم يكن قائدها وزعيمها محمد — صلوات الله وسلامه عليه — ليشذ عن إخوانه فى طريقة عرض دعوته :

«قل ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، وما أنا إلا نذير مبين» . (الأحقاف ٩)

«قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا . الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى ، الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون» . (الأعراف ١٥٨)

« إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة التى حرمها وله كل شىء ، وأمرت أن أكون من المسلمين — وأن أتلو القرآن ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين» (النمل ٩١ — ٩٢).

(١) عقـــائد

إن مهمة الإسلام كدين اقتضت تغييرا كبيرا . بل انقلابا خطيرا فى العقائد ، ولم يعتمد الدين فى هذا الانقلاب إلا على العقل ، ولم يستجب فرد واحد للانقلاب إلا بعد التمحيص والتفكير ، وبذلك أمكن تكوين عقيدة سليمة تنم عن إيمان راسخ ، ولاينطبق على العقيدة الدينية فى الإسلام قول الدكتور « غوستاف لوبون » فى كتابه « الآراء والمعتقدات » حين قال : « إن المعتقد الدينى هو إيمان أينع فى عالم اللاشعور ، من غير أن يكون للعقل سلطان عليه » لأن الإسلام — كما ذكرت — اعتمد فى انقلابه على العقل والتفكير الحر ، ولم يفرض عقيدته الجديدة بالقهر ولا بالقوة ، ولذلك لبث ثلاثة عشر عاما بين أرجاء مكة ، يناضل العقائد البائدة ، ويمهد لعقيدة سليمة صحيحة ، تتفق والمنطق السليم ، والعقل الرشيد ، وسلاحه خلال هذه الفترة من الزمن ، النقاش الهادىء وحده .

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين »

(النحل ١٢٥)

وحين قدر للاسلام أن يبرز إلى الوجود ، كانت العقائد السائدة قد بلغت غاية الاضطراب ، وليس أدل على انحطاط العقول والأفكار من اتخاذ الأوثان والأصنام أربابا تعبد ، وآلهة يرجى نفعها ويخشى ضررها فأخذ يندد بهذه العقائد . ويدلل على فسادها ، ويعرض عقيدته الجديدة مبرهنا على سلامتها وصلاحيتها — والعقيدة فى الإسلام شطران : شطر يتعلق بالحياة الدنيا ، وشطر يتعلق بالآخرة ، والأول يتضمن الإيمان بوجود الله ووحدانيته ، والآخر يتضمن الإيمان بالبعث والجزاء .

لقد مهد الإسلام لعقيدته الجديدة السليمة بالتندية بالعقيدة القديمة البائدة ، والسخرية من عبادة ما لا ينفع ولا يضر

« يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ، ذلك هو الضلال البعيد — يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ، لبئس المولى ولبئس العشير »

(الحج ١٢،١٣)

« قل أتدعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا . قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين »

(الأنعام ٧١)

نعت الإسلام آلهتهم بالضعف والعجز ، وفضح قيمتها ، وتحداها أن تفعل أدنى شىء يثبت أن لها قدرة أو سيطرة .

« يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » (الحج ٧٣)

« أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون — ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون . (الأعراف ١٩١ ، ١٩٢)

« والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ، ولا أنفسهم ينصرون » (الأعراف ١٩٧)

« واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا » .

(الفرقان ٣)

« قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير » (سبأ ٢١)

« والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » (فاطر ٢١)

« قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السموات أم ءاتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ؟ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا » (فاطر ٤٠)

« وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم وبينهم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ، وما لكم من ناصرين »

(العنكبوت ٢٥)

« ألهم أرجل يمشون بها ؟ أم لهم أيد يبطشون بها ؟ أم لهم أعين يبصرون بها ؟ أم لهم آذان يسمعون بها ؟ (الأعراف ١٩٥)

« إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير » (فاطر ١٤)

***

ومتى اقتنعت العقول بفساد العقيدة الوثنية التى تسجل عليها المعرة والكساد كان من السهل عليها أن تستجيب لداعى العقيدة الجديدة الإسلامية ، ولا ريب فى أن أول طور من أطوارها الإيمان بوجود إله قادر خالق رازق لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، يتصرف وحده ، ولا يسأل عما يفعل ، مالك لكل شىء ، نافع ضار ، رافع خافض ، معز مذل جبار رحيم ، غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب ذى الطول ، لا إله إلا هو إليه المصير .

« الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش . وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون — وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى

وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (الرعد ٢ ، ٣)

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب — ونزلنا من السماء ماء فأنبتنا به جنات وحب الحصيد — والنخل باسقات لها طلع نضيد — رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً ، كذلك الخروج » (ق ٦ — ١١)

« وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ، ويوم يقول كن فيكون قوله الحق ، وله الملك يوم ينفخ فى الصور ، عالم الغيب والشهادة ، وهو الحكيم الخبير » (الأنعام ٧٣)

« هو الذى خلقكم ، فمنكم كافر ومنكم مؤمن ، والله بما تعملون بصير ، خلق السموات والأرض بالحق ، وصوركم فأحسن صوركم ، وإليه المصير ، يعلم ما فى السموات والأرض ، ويعلم ما تسرون وما تعلنون ، والله عليم بذات الصدور » (التغابن ٢ ، ٣ ، ٤)

« سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى » (الأعلى ١ — ٥)

« قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمن يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر » (يونس ٣١)

« وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه ! بل له ما فى السموات والأرض ، كل له قانتون » (البقرة ١١٦)

« وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » (البقرة ١٦٣)

« لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد »
(المائدة ٧٣)

« بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم » (الأنعام ١٠١)

« قل لو كان معه ءالهة كما تقولون إذاً لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا » (الإسراء ٤٢ ، ٤٣)

« ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون » (المؤمنون ٩١)

والإيمان بوجود الإله وبوحدانيته يقرر إفراده بالعظمة والقوة والقهر وإفراده بالعظمة والقوة والقهر ، يقرر الاعتزاز والثقة به ، والتوكل عليه ، واللجوء إليه ، واستمداد العون منه ، لأنه وحده الذى يملك النفع والضر ، وكشف السوء وتفريج الكروب ، ولأنه وحده الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ويعز من يشاء ويذل ، ويرفع من يشاء ويخفض ، ويسعد من يشاء ويشقى . ولأنه وحده الجدير بأن يسأل ، والجدير بأن يستعان به ، والجدير بأن تستجدى رحمته ، وتخشى نقمته .

« أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ءإله مع الله ؟ قليلا ما تذكرون — أمن يهديكم فى ظلمات البر البحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، ءإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون — أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ، ءإله مع الله ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »
(النمل ٦٢ ، ٦٤)

يأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون » (فاطر — ٣)

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير — وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير »
(الأنعام ١٧ ، ١٨)

« قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعا وخفية ، لئن أنجينا من هذه لنكونن من الشاكرين — قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون »
(الأنعام ٦٣ ، ٦٤)

***

إذن فليس هناك داع إلى إيجاد وساطة بين الخالق وعباده ، وعقيدة الإسلام الصحيحة تتنافى مع اتخاذ الوساطة من الأحياء ، لأنه جبن وتقهقر وتخاذل ، أو اتخاذها من الأموات لأنه حمق وغباوة وبلاهة — لقد منى الإسلام بطوائف يقال لها الطرق الصوفية ، تغلغل دجلها وشعوذتها فى نفوس كثير من الجهلة الأغبياء والسذج البسطاء ، وتمكنت عقيدتها من قلوب كثير من العوام ، أولئك الذين لا يفقهون من الإسلام شيئا ، ولا يحبون أن يفقهوا شيئا ، إلا فى حدود هذه (الطرق الصوفية البلهاء) ولقد تزعم لحركاتها فى كثير من البلدان الإسلامية كل عربيد مستهتر ، وكل مستخف بالعقول والأخلاق ، ورأوا فى حرفتهم ما يدر عليهم الخير الكثير ، فحرصوا كل الحرص على رواج بضاعتهم ، لاسيما بين الطبقات الكادحة التى تتخذ منها متنفسا لها ، ومخففا عنها من الإرهاق الجاثم فوق عاتقها ، والعجب المثير للضحك أن يمنح مشايخ الطرق أنفسهم لقب المربى ، ويمنح الأتباع أنفسهم لقب المريد . . وهكذا ، وليس بعجيب أبدا أن تضم فرقة المربين الكوائين والسعاة والطهاة ، وكل من تحدثه نفسه أن يكون مربيا ، ما دام فى استطاعته أن يطيل فى لحيته ، وأن يضخم عمامته ، وأن يدفع لشيخ المشايخ الضريبة عن يد وهو صاغر .

إن بعض مشايخ الطرق يعطون أنفسهم صفة القدرة على كل شىء ، ويقبلون عن طيب خاطر ، أن يذيع عنهم أتباعهم طى الأرض لهم ، ويوحوا إلى الجهلة التبرك بآثارهم ، ولكم قهقهنا ونحن فى حداثة السن ، حين كنا نرى الأمهات تتزاحم على شيخ الطريقة ليبارك أطفالهن ، والنسوة العقم والفتيات العذارى يتقاسمن بالقسطاس ماء الشيخ بعد أن اغتسل أو توضأ به رجاء أن تلد العقيم وتتزوج العذراء . . ! وما هو أدهى وأمر أن الاحتراف باسم الدين لم يكن قاصرا على طوائف الطرق الصوفية الجهلاء ، المتوغلة فى بلاد العالم الإسلامى توغل الأوبئة التى لا تبقى ولا تذر ، والتى لا ترحم ولا تشفق ، بل هناك نوع آخر أدعى إلى الاستخفاف بعقول المسلمين ، وهو الاحتراف باسم الدين فى ساحات الأضرحة ، لاسيما استغلال أضرحة العلماء الأمجاد ، وآل بيت الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — فلقد أصبحت هذه الأضرحة المشهورة مرتعا خصبا للقائمين بأمرها ، وملجأ يضم شراذم من المتعطلين والمتسولين والدجاجلة ، بل لقد أصبحت قبلة يحج إليها الآلاف من الجهلة للتوسل بالأضرحة فى قضاء حاجاتهم ، وتفريج كروبهم ، والاستشفاء بترابها والتمسح بجدرانها . . !

إن الإسلام يستنكر أمثال هذه المهازل لأنها سوس ينخر فى أساسه ، ومعاول تهدم فى عقيدته السليمة ، وتصرف الخلق عن الأخذ بسنة الله فى السعى ومواصلة العمل ، ولكن يظهر أن المؤامرة التى دبرها المستعمر لشل نضوج أفكار المسلمين ، تعمل الحكومات على تحقيقها ، فهى لا تتصدى أبدا لهذه الحالة ، ولا تفكر فى إزالتها ، لأن من مصلحتها أن ينصرف الرأى العام إلى التلهى بأمثال هذه الخرافات ، التى تجد تأييدا ونصرا من كثير من علماء الدين فى المسلمين ، وتجد منهم تعصبا لها ، ودفاعا عنها . ! !

ولقد كان من جراء العاطفة الـكاذبة تضليل التاريخ ، وتضليل أفهام الشعوب المسلمة ، فمثلا لم يثبت أبدا أن السيدة زينب بنت الإمام على ، ولا سيدنا الحسين أخاها ، مدفونان فى القاهرة عاصمة الديار المصرية ، ومع هذا فلهما ضريحان بالقاهرة يحج إليهما ، وهما أشهر من أن يتحدث عنهما — وإذا كان الرسول الأعظم يقرر أنه لا يملك لنفسه ولا يملك لآل بيته من الله شيئا، فـكيف يستساغ أن يملك غيره للناس شيئا .

ومجمل القول : أنه ليس هناك وساطة بين الخالق وعباده من الأحياء أو الأموات ، لأن الصلة بالله حين لا تعترضها الحواجز تكون أقوى وأمتن ، وليس هناك من الخلق من يملك للناس نفعا أو ضرا ، لأن الخلق فقراء إلى الله ، والله وحده هو الغنى ، وهذه هى العقيدة السليمة التى يرضاها الإسلام لأتباعه :

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » (البقرة ١٨٦)

« له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء ، إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه » (الرعد ١٤)

« قل من رب السموات والأرض قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء ، لا يملـكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل يستوى الظلمات والنور . » (الرعد ١٦)

هذا هو شطر العقيدة الإسلامية الخاص بالدنيا ، إيمان بوجود الخالق وإيمان بوحدانيته ، وأما الشطر الآخر الخاص بالآخرة ، فإيمان بالبعث ، وإيمان بالجزاء والشطر الآخر متمم للأول ، فإذا خلق الإنسان للدنيا يكدح فيها ، دون أن يكون هناك نشر وحساب كان خلقه عبثا ، والله عز وجل يتعالى عن أن يكون خلقه عبثا .

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ، وأنكم إلينا لا ترجعون — فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش العظيم » (المؤمنون ١١٥، ١١٦)

***

والإسلام فى غرس عقيدته يعتمد دائما على المنطق والعقل ، ولا يحاول فرض عقيدة دون أن تناقش وفى المناقشة ، إقناع للمتشكك ، وطمأنينة للمقتنع ولقد أباح الله حرية المناقشة فى عقيدة البعث لرسول من أولى العزم ، هو ابرهيم الخليل ، وفى هذا أكبر دليل يؤيد أن عقيدة الإسلام تعتمد على المنطق والعقل ، وترحب بالمناقشة ، وتجيز حرية البحث ، وهذا شأن العقائد السليمة الصحيحة .

« وإذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحي الموتى ، قال أولم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ، قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم » (البقرة ٢٦٠)

وهكذا يعرض الإسلام عقيدة البعث عرضا منطقيا لا يصطدم مع العقل .

« وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمة ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » (الأعراف ٥٧)

« وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا ، أإنا لمبعوثون خلقا جديداً — قل كونوا حجارة أو حديدا — أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ، قل الذى فطركم أول مرة » (الإسراء ٤٩ — ٥١)

« ويقول الإنسان أإذا مت لسوف أخرج حيا — أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » (مريم ٧٦ ، ٧٧)

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيي العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشاها أول مرة وهو بكل خلق عليم » (يس ٧٨ ، ٧٩)

***

ولاقيمة للبعث إذا لم يكن هناك حساب لينال كل جزاءه ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، فقد اقتضت سنة الحق تبارك وتعالى أن يخلقوا فى الدنيا ليكدحوا فيها ، وأن يبعثوا فى الآخرة لينالوا جزاءهم ، وإيمان الإنسان بالحساب والجزاء إيمانا صادقا يدفع به إلى الجد والاستقامة فى دنياه ، والحساب والجزاء ضرورة لاستقامة سنة الله حتى لا يكون خلق الإنسان وبعثه عبثا ولهوا .

اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (غافر ١٧)

إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيي — ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى (طه ٧٤ ، ٧٦)

هذه عقيدة الإسلام فى إيجاز ، والعقيدة أصل من أهم أصوله ، بل هى أصل أول ، وشرط فى صحة الإسلام .

(ب) تكاليف . . .

التكاليف الشرعية ، هى الأصل الثانى من الأصول التى يقوم عليها الإسلام ، وهذه التكاليف التى كلف بها المسلم من صلاة وزكاة وصيام وحج ، لها أسرارها التى لا حصر لها ، وهى فى مجموعها تهدف إلى غايات سامية تنهض بالإنسانية إلى أعلى مراتبها ، وتهدف إلى ربط الأمة الإسلامية برباط متين من الأخوة الصادقة التى تصون لها كيانها . ولا أكون متجنيا حين أقول : إن تقصير المسلمين اليوم فى إدراك كنه أسرار هذه التكاليف

الشرعية ، وإعراضهم عن الاستجابة لنوازعها ، هو الذى حدا بهم إلى هذا المصير السيء وهذا الوضع المهين ، الذى لاتحسد عليه الأنعام فضلا عن خير أمة أخرجت للناس . . ! !

وسيظل المسلمون على حالهم التعسة ، ماداموا بعيدين عن روح هذه التكاليف الشرعية مقتنعين بمظهرها دون جوهرها ، فالمسلم حين يصلى ما كتب عليه من صلوات ، وحين يؤدى ماعليه من زكاة ، وحين يصوم ما فرض عليه من صيام ، وحين يحج متى استطاع ؛ حين يقوم بهذه الفرائض ، دون أن يعاون فى تحقيق الأهداف التى ترمى إليها ، ودون أن يحس بإحساس الإسلام حين فرض ، يكون قد جعل من نفسه آلة صماء ، فتتحرك وهى لا تفقه معنى لحركاتها .

الصلاة :

تكليف عملى ، وتعتبر ثانية القواعد التى بنى عليها الإسلام ، بل هى أقوى الأعمدة التى يرتكن عليها بنيانه ، والإسلام حين يفرضها على المسلم فى اليوم والليلة خمس مرات ، فإنما يهدف إلى غايات تعود على الفرد والمجتمع والأمة بالخير ، وما فرض الصلاة إلا وهو يود تحقيق هذه الغايات ، وأولى هذه الغايات النظافة البدنية ، فالصلاة تهيء للفرد المسلم فى اليوم والليلة فرصا خمسا يستوفى خلالها حظه من النظافة ، والرسول (ص) يجسم هذا المعنى فى حديث شيق . فيقول :

لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا

والنظافة إحدى مقومات الشخصية . تشعر الانسان بأن له وجودا . والذين يتصنعون الزهد بتقشفهم وعدم اهتمامهم بمظهرهم . ليسوا من

الإسلام فى شىء لأنهم بعيدون عن روحه ، فاهتمام الإسلام بالنظافة له خطره فى إيجاد مجتمع نظيف سليم الأبدان ، سليم العقول ، ولقد كان رسول الله (ص) دائم التحريض على النظافة ، والتنفير من الوسخ حتى اعتبر أن دخول الجنة مرتبط بالنظافة ، وعد الوسخ ممن يبغضهم الله تعالى ، وأمر بإكرام الشعر أو قصه ، وبالسواك لتعدد فوائده ، وفرض على المسلم الاغتسال فى كل أسبوع مرة على الأقل :

إن الإسلام نظيف فتنظفوا ، فإنه لا يدخل الجنة إلا نظيف .

إن الله يبغض الوسخ والشعث .

من كان له شعر فليكرمه — من اتخذ شعرا فليحسن إليه أو ليحلقه —

تسوكوا فإن السواك مطهرة للفم مرضاة للرب ، ولولا أنى أشق على أمتى لفرضته عليهم .

حق على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام يوما يغسل فيه رأسه وجسده .

إن دين الإسلام يرمى من اهتمامه بالنظافة إلى إكرام المسلم نفسه ، واعتداده بشخصه ، ليكون خليقا بعزة الإسلام ، وبنعمة الله ، وقد ورد فى الحديث الشريف : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » والذين أخذوا على عواتقهم أن يزيفوا معانى الإسلام ، يحاولون أن يجعلوا من الإسلام دين تقشف وزهد فى متع الحياة ، والواقع أن الإسلام يعتبر النظافة المعنوية والنظافة الظاهرية عنصرين يكونان الشخصية . فمن اكتفى بالمعنوية دون الظاهرية ، فلم يؤيد قول الله تعالى « ولقد كرمنا بنى آدم » ومن اكتفى بالظاهرية دون المعنوية ، فقد أراد لنفسه أن يكون تمثالا لا روح فيه ولا قلب له ، ولقد قرر الله هذه النظرية فقال جل شأنه : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » (البقرة ٢٢٢)

ولم يكن الإسلام ليتهاون أبدا فى النظافة الظاهرية ، كيف ذلك ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، كان يرجل شعره ، وكان لا يفارقه المشط والسواك والمرآة فى سفره ، وكان يأمر بقص الأظفار وتنظيف ما تحتها ، وحلق العانة ونتف الإبط ، وكان يكتحل ويتطيب ، ورأى رجلا غير معنى بشعره فقال من كان له شعر فليكرمه ، ودخل عليه رجل ثائر الرأس أشعث اللحية فقال أما كان لهذا دهن يسكن به شعره ، ثم قال : يدخل أحدكم كأنه شيطان ، وهناك غاية ثانية يهدف إليها الإسلام ، ولها أهميتها وهى تكوين الجماعات الإسلامية وربطها برباط متين من الأخوة ، فكل مسجد يضم جماعة من المسلمين تلتقى أشباحهم وأرواحهم تحت سقفه خمس مرات فى اليوم ، وتتجه قلوبهم إلى قبلة واحدة ، وذلك ليوثق الصلات ، ويؤكد التعارف والتآلف ، ولتمكين الجماعات الإسلامية من ذلك يحرص الإسلام على أن يؤدى المسلمون الصلاة جماعة فى أوقاتها ، وجعل صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين مرة . وقد روى أبو هريرة أن الرسول (ص) فقد ناسا فى بعض الصلوات فقال : لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس . ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق بيوتهم » ولأهمية هذه الغاية الخطيرة يفرض الإسلام على المسلمين اجتماع يوم الجمعة من كل أسبوع إلا لعذر قهرى ، ويحرم البيع والشراء وما إليهما من الأعمال فى وقت هذا الاجتماع .

« يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » (الجمعة ٩)

ويقول أبو الدرداء (ض) سمعت رسول الله (ص) يقول : ما من ثلاثة فى قرية ولا بد ، ولا تقام فيهم الصلاة إلا وقد استحوذ عليهم الشيطان فعليكم بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية (أى المنفردة) .

وينذر الرسول (ص) المتخلفين عن هذا الاجتماع بأقصى العقوبة فيقول :

« من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر طبع الله على قلبه » وفى رواية أخرى فقد نبذ الإسلام وراء ظهره . ولقد اختلف رجل إلى ابن عباس يسأله عن رجل مات ولم يكن يشهد جمعة ولا جماعة ، فقال فى النار ، فلم يزل يتردد إليه شهرا يسأله عن ذلك وهو يقول فى النار .

وهناك غايات أخرى يهدف إليها الإسلام كتربية المسلمين على الطاعة والنظام وما إليهما مما لها أثرها فى تكوين الأمم التى تريد أن تحيا حياة طيبة كريمة .

الزكاة :

هى الركن الثالث فى الإسلام ، يعتمد عليها الإسلام كمبدأ دائم ثابت لتحقيق العدالة الاجتماعية فى أمته ، لأنه يعتبر الفرد المسلم عضوا فى جسد الأمة ، يجب أن يتعاون مع بقية الأعضاء ، على تسيير الجسد محتفظا بكيانه ، ولكى تبقى الأمة الإسلامية مستقرة غير مضطربة ، يجب أن يتعاون أفرادها فيعين الغنى الفقير ، ويأخذ القوى بيد الضعيف ، والمقتدر بيد العاجز ، ويرغب الإسلام فى أن يمسك الزمام بيده . فلم يدع هذا التعاون موكولا إلى الأشخاص دون أن يهيمن عليه ، ففرض على الغنى جزءا من ماله لا يضر به ، ليقوم بتوزيعه على الفقراء والمساكين ؛ بإنفاقه فيما يفيد الأمة وينهض بها ، ويهب لها الحياة الأبية الكريمة .

ولم يفرض الإسلام الزكاة على المسلمين كضريبة يؤدونها عن يد وهم صاغرون ، وإنما فرضها كرمز للتعاون العملى والإخاء الفعلى ، فقد سلك الإسلام بفرضه الصلاة والصيام والحج على المسلمين ، وغرسه العقيدة السليمة فى نفوسهم مسلكا روحيا معنويا لربطهم برباط الأخوة المقدس ، ولكنه بفرضه الزكاة سلك مسلكا عمليا ماديا منظما تقتضيه المصلحة العامة ، ويتطلبه الإصلاح الشامل ، ويحتاج إليه الاستقرار الدائم .

وقد تستطيع أن تدرك السر فى قرن الزكاة بالصلاة فى كثير من الآيات القرآنية ، فإن الإنسان وهو يؤدى الصلاة : مؤمن بالأخوة فوجب عليه أن يحقق هذا تحقيقاً عمليا ملموسا ، فتزداد الأخوة قوة وتماسكا ، ويظهر أثرها جليا واضحا .

ومما لا شك فيه أن التهاون فى أمر هذا الركن الخطير قد يسبب اضطرابا اجتماعيا وانهيارا شاملا وفتنة لا تحمد مغبتها — وقد لاحظ هذا وأدركه الخليفة الأول لرسول الله (ص) أبو بكر الصديق (ض) فلم يكد يسمع إثر لحوق الرسول بالرفيق الأعلى أن هناك طائفة تود التفريق بين الصلاة والزكاة ، والتمرد على ركن الزكاة حتى أعد العدة لقتالها ، وإخماد الفتنة قبل اندلاع نيرانها ، ولما اعترض عمر خشية أن تتمخض الحرب عن نكبة تضاعف آلام المسلمين فى فقد قائدهم ، أجاب أبو بكر إجابة المتيقظ الخبير « والله لو منعونى عقالا (أى حبلا) كان يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقاتلتهم على منعه ؛ والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، وقد قال النبى إلا بحقها .

ومن قبل أشار القرآن إلى قصة ثعلبة بن حاطب ، فقد تمرد على الزكاة ، ورد عامل رسول الله (ص) ولم يؤد زكاة ماله ، فكان جزاؤه ، أن أبعد عن حظيرة الإسلام ، قضاء على الفتنة ، وإنذارا لمن تحدثه نفسه بإثارتها مرة أخرى ، ولقد حاول أن يرتدى ثوب الطاعة والخضوع ، ولكن بعد أن نزل قضاء الله فيه — فأخذ زكاة أمواله وتوجه بها إلى رسول الله (ص) فلم يقبلها منه ، وفى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان عاود الكرة ، ولكن واحدا من أولئك لم يقبلها منه ، ومات آسفا على نفسه غير مأسوف عليه .

« ومنهم من عاهد الله لئن ءاتانا من فضلة لنصدقن ، ولنكونن من الصالحين — فلما ءاتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون — فأعقبهم

الله نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون . (التوبة ٧٤ — ٧٧)

***

ولم يفت الرسول (ص) أن يدرك خطر التهاون فى هذا الركن ، فتوعد المتمردين عليه ، وأنذرهم بمقت الله وعذابه — فقد روى أبو هريرة عنه (ص) أنه قال : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ، مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه يعنى شدقيه ، ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ثم تلا : ولا يحسبن الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير » وقد يكون الذى حدا بأبى ذر الغفارى (ص) أن ينهض نهضتة الاشتراكية المعروفة ، أنه انتهى ذات يوم إلى رسول (ص) وهو جالس فى ظل الكعبة ، فلما رآه قال (ص) هم الأخسرون ورب الكعبة ، فقال أبو ذر ومن ، قال (ص) الأكثرون أموالا ، إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، وقليل ماهم . . ! ما من صاحب إبل ، ولا بقر ، ولا غنم ، لايؤدى زكاتها ، إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه ، تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها ، كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها ، حتى يقضى بين الناس » .

الصوم :

الركن الرابع فى الإسلام ، وهو خاص بتربية النفوس ، وما أحوج النفوس إلى التربية ، والإسلام يعد أبناءه دائما للجهاد والنضال لنصرة كلمة الله ، كالوطن يعد أبناءه للكفاح من أجل تحقيق أمانيه — وفى فريضة الصوم ألوان من التربية الرقيقة فهو يطبعهم بطابع الطاعة ، والنظام ،

والصبر ، ومجالدة النفس ، وهناك غاية ثانية ، هى طبعهم بالطابع الاشتراكى فحين يصوم المسلم يشعر المساواة التامة بينه وبين غيره ، وحين يحزه الجوع يقدر مسغبة الفقير إذا جاع فيحقق الاشتراكية عمليا ، وهناك غاية ثالثة صحية تعود على الصائم نفسه ، فالمعروف أن الآلات والأجهزة وما إليها ، لا يمكنها مواصلة العمل والدأب عليه ، وإلا تعرضت للعطب والعطل ، وكذلك جهاز الإنسان الهضمى فى حاجة إلى راحة ، فجاء صوم رمضان أطيب مناسبة له ، يأخذ خلالها أهبته من الراحة ، ويسترد نشاطه وقوته ،

والصوم فرصة طيبة أيضا تحقق غاية أخرى ، وهى الأدب ، فالصائم إنما يعتبر نفسه فى ضيافة الحق تبارك وتعالى . ومن كان فى ضيافته وجب عليه أن يلتزم الأدب ، وأن يتحلى بالأخلاق الفاضلة العالية ، وأن يتجنب مالا يليق به كضيف فى رحاب الله ، حتى يكون الصوم وقاية له وحصنا ، وقد أجلى هذا المعنى رسول الله (ص) فقال : « إنما الصوم جنة (وقاية) فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث (يفحش) ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم إنى صائم » وقد يصوم الإنسان لمجرد الصوم ، صوماً آليا لا تربية ولا خشوع ولا تأدب فيه فيكون كمن لم يصم سواء بسواء ، وفى هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه : « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » .

أما من أراد أن يتمرد على الصوم ، ويشذ عن النظام ، ولم يضع لبنة فى بناء الاشتراكية العادلة ، فقد وضع له الإسلام من العقاب ما هو كفيل بزجره ، وفرض عليه ، إن هو أفطر يوما ، أن يعتق رقبة ، أو يطعم ستين مسكينا أو يصوم شهرين متتابعين ، والأصل فى هذا العقاب الزجر حتى لا يعود المعاقب إلى الشذوذ مرة أخرى ، ويجب أن يعاقب الخارج نفسه بنوع

يؤثر فيه من الأنواع الثلاثة المذكورة : فإن كان فقيرا عوقب بالأطعام ، وإن كان غنيا عوقب بالصيام ، وقد حدث أن استفتى الخليفة هارون الرشيد الإمام مالكا (ض) فى الكفاره الواجبة عليه لأنه أفطر يوما من رمضان بغير عذر فأفتاه بصيام شهرين ، ولما سأله أحد تلامذته لم لم تخيره بين العتق والإطعام والصيام ؟ أجاب بأن الكفارة عقاب ردعى ولا يوافق أمثال الخليفة غير تحمل المشقة فى صيام شهرين . .

الحج :

خامسة القواعد التى أقيم عليها بناء الإسلام كدين ، والحج قاعدة لها خطرها ، وإن كان المسلمون لازالوا يتعامون عنها ، وكل ما يدركه المسلم من الحج أنه فريضة يؤديها استجابة لأمر الله ما دام قادرا . أما الأسرار التى من شأنها فرض الله الحج على عباده فهو لا يفقهها ولا يود أن يفقهها ، وقد يكون هذا هو السبب فى أن المسلم يحج ويعود وفى عقيدته شىء واحد هو أنه رجع خالياً من الذنوب كيوم ولدته أمه .. وكفى . . !

إن للاسلام رغبة قوية فى ربط الأمة الاسلامية برباط أخوى متين ، ومهد لنا بإيجاد روابط فرعية تصغر تارة كما فى صلاة الجماعة ، وتكبر تارة أخرى ، كما فى صلاة الجمعة والعيدين ، أما الرابطة الكبرى الجامعة ، فقد أعد الإسلام لها الحج ، وجعله فى أشهر معلومات تلتقى فيها أشباح المسلمين وأرواحهم أولئك الذين أتوا من الأقطار القريبة والبعيدة ، ومن الآفاق المحدودة والمطمورة لتصفو نفوسهم ، وتطهر قلوبهم ، ويصاغوا صياغة تليق بهم كأخوة بررة ، مترفعين عن الفحش والفسق والجدل والمراء ، لأنهم ضيوف الواحد الأحد فى بيته .

« الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج ، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون ياأولى الألباب . (الحج ١٩٧)

ثم ما أجمل حكمة الله تعالى حين فرض الحج على المسلم المقتدر مرة واحدة فى العمر ، ليستطيع كل مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها أن يشترك فى هذا المؤتمر ولو مرة واحدة ، ولأنها رحلة شاقة تقتطع وقتاً غير قصير من العام ، ولو كان الحج فريضه على المسلم المقتدر مرة كل عام لكان هذا الاجراء ضربا من المحال ، ومشقة لا تطاق ، فمن أين للقاطن فى مجاهل العالم ، وأطراف المعمورة أن يتحمل السفر شهوراً من كل عام ، ومن أين لمكة أن تتسع لجموع تفوق الملايين ، ولكن حكمة الله قد اقتضت أن تكون فريضة الحج مرة واحدة فى العمر ليؤديها المسلمون المقتدرون ، وليستقبل المؤتمر الإسلامى فى كل عام أعضاء جدداً قد يكون لتفكيرهم أثر فى توثيق العلاقات وربطها ، وبذلك يتحقق أن الدين يسر لا عسر ، وما جعل الله على المسلمين فيه من حرج .

ولا تنس أن هدف الإسلام الأول من فريضة الحج ، هو عقد مؤتمر إسلامى شامل جامع يضم ألواناً وأجناساً من الأمة الإسلامية ، ومهمة هذا المؤتمر أن تبسط فيه كل دولة آلامها وآمالها وعقباتها ومشكلاتها ، فيتعاون الجميع فى تحقيق الآمال وإزاحة العقبات وحل المشكلات ، وهذا الهدف قد أصبح اليوم نسياً منسياً ، وأصبحت هذه الفريضة الخطيرة هينة غير ذات موضوع ، فلا تزيد على مناسك يقوم بها الحجاج أفراداً أوجماعات حتى مجرد التعارف أو التآلف لا يتمكنون منه ، والأدهى والأمر أن الحكومة السعودية فى الحجاز تمنع الخطب السياسية وتحول دون تأدية

المعروفين بالنشاط الإسلامى السياسى فريضة الحج . نعم إن هناك زعماء من البلاد الإسلامية يؤدون فريضة الحج ، ولكن لا تسمع لوجودهم فى الحجاز أى أثر يذكر... اللهم إلا ما كان من حفلات التكريم التى تقيمها حكومة السعوديين لهم .

إن فلسفة الإسلام فى فريضة الحج ترمى إلى تحقيق غايات لها خطرها فى المجتمع الإسلامى ، وفى تقوية الصلات بين شعوبه ، ولكنها اليوم ضائعة كل الضياع ، بعد أن أصبح الحج لا يزيد على رحلة تقطع ، وطقوس تؤدى ، ومظاهر يرغب فيها ، وتبذل الرشاوى من أجلها ، وبعد أن أصبح لقبا يتسابق إلى نيله كبراء الأغنياء وبلهاء الفقراء . . .

(ح) مبادىء

ذكرت أن الإسلام ثورة فكرية قامت على مبادىء قوية منظمة ، وهذه المبادىء من شأنها أن تحفظ قوة الإسلام وجماله وعظمته وهى مبادىء ثابتة راسخة تقوم على نظريات صحيحة لا تقبل المناقشة لسلامتها ، ولا الطعن لقوتها .

وهذه المبادىء من شأنها أن تهب للاسلام بهاء وجمالا ، وتهب للفكر البشرى إمداداً من الرقى لا يقف عند حد ، وإذا كان المسلمون — لظروف أليمة — لا يأبهون بهذه المبادىء السامية ، ولا يجيدون الدعاية لها لإبراز الإسلام فى الصورة الصحيحة التى هو أهل لها ، فحسب الإسلام أنه قائم عليها . لا يضيره تخلف المتخلفين ولا تقصير المقصرين .

إن الذنب دائماً ليس ذنب الإسلام ، وإنما ذنب أهله ، ففى الإسلام مجال فسيح لإظهار أجل المعانى وأسمى المبادىء ، وفى المسلمين اليوم استعداد كبير لعدم الاستفادة من معانى الإسلام ومبادئه ، والعجيب أن

لهذه المعانى والمبادىء أهمية كبيرة فى أرقى بلاد العالم ، وتحتل جزءا كبيراً من همم شعوبها ، وهى ليست أصلا من أصول الأديان القائمة هناك ولكن جاءت وليدة التقدم الفكرى ، فكان تأييداً للاسلام الذى كان له شرف سبق التقدم الفكرى بآلاف السنين ، وصار من سخرية القدر أن يخذل الإسلام أهله ، وأن ينتصر له من غير إيحاء من ليس أهله .

إن اكرام البشرية ، واحترام الفكر ، وإجلال العلم ، والتطور ، وتقدير الدين والدنيا معاً ، كل أولئك معان سامية ، لها أكبر الأثر فى تنظيم شئون الحياة والدفع بها نحو النور ؛ وإمداد البشرية قاطبة بما يسبغ عليها السعادة وأجل النعم .

١ — اكرام البشرية

يعتبر الدين الإسلامى صاحب الفضل الأكبر فى صيانة البشرية من طواغيت الاستبداد ، وفى تخليصها من جرائم المهانة ، وفى وضعها الوضع اللائق بها لتكريم الخالق جل وعلا إياها ، ولأن البشرية آية الله الكبرى فى الأرض ، ودليل وجوده ووحدانيته لدى العقول ، ولقد اعترضت الملائكة فى بادىء الأمر على إيجاد البشرية فى الأرض — لا اعتراض المتمرد على تدبير الخالق ، ولكن اعتراض المشفق الذى يخشى ألا يقابل فضل الله بالشكر ، ولقد ضرب الله لملائكته مثلا ملموسا تتجلى فيه حكمة الله وفلسفته فى إيجاد البشرية — حين علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فأقرت بالعجز .

« وإذا قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال أنا أعلم مالا تعلمون — وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ،

فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين — قالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم — قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما تكتمون . (البقرة : ٢٠ — ٢٣)

والإسلام يحترم البشرية كل الاحترام ، لأن الحق تبارك وتعالى كرمها غاية الإكرام .

ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا . (الإسراء ٧٠)

ولقد أعلن الإسلام إكرام البشرية منذ اللحظة الأولى التى أشرقت فيها شمسه على الدنيا ، وتجلى هذا الإكرام ، فى أن خالق البشر ، خلق البشرية على اختلاف أجناسها وألوانها وألسنتها من مادة واحدة ، وذلك فى أول آية نزلت .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق » (العلق ١ ، ٢) إن فى هذه الآية تنبيهاً للأذهان إلى قاعدة ثابتة يقررها الإسلام ، وهى أن خالق البشر الذى اقتضت عدالته أن يخلق البشرية من أصل واحد ، يجب أن تقرر قاعدة المساواة فى الحياة بين أفرادها اكراما لها ، فلايكون فضل للون على لون ، ولا لجنس على جنس إلا بمقدار ما يبذله كل من الخير لإسعاد الإنسانية وإنعاش البشرية .

إن فى تقرير قاعدة المساواة طبيعة من طبائع الإسلام ، وإن فى المساواة فى الخلقة تمهيداً لتقرير المساواة فى الحياة ، والإسلام فى بساطة يشير إلى هذه الناحية إشارة لا تحتاج إلى توضيح :

يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة . (النساء : ١)

وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة . (الأنعام : ٩٨)

يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . (الحجرات : ١٣)

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : كلكم لآدم وآدم من تراب .

ويقول : ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى .

ويقول : الناس سواسية كأسنان المشط .

وقد يقول قائل : إذا كان الإسلام قد أعلن اكرامه للبشرية من أول لحظة ، فلم لم يقض على الرق ، ووجود الرق يتنافى مع اكرام البشرية ؟ .

والواقع أن الإسلام حين أشرقت شمسه لم يقر الرق ، ولم يشأ أن يصطدم بإلغائه وقد كان جزءا لا يتجزأ من بناء النظام الاجتماعى ، وجانباً مهما من جوانب النظام الاقتصادى .

نعم لم يقرر إلغاءه دفعة واحدة خشية الاضطراب الذى ينتج عن ذلك ، والذى قد يكون سببا فى عرقلة الرسالة التى تود أن تشق طريقها إلى الحياة ، ولكنه وضع الأسس التى يقوم عليها إلغاؤه ولو بعد حين ، وفى نفس الوقت قرر اكرام الرقيق لأنهم ينتسبون إلى البشرية التى أكرمها الله تعالى .

والأسس التى وضعها الإسلام لإلغائه هى أشبه بمقص يأتى هذا النظام فينقصه من أطرافه ، تاركا لتطور الزمن والفكر الإتيان على البقية الباقية

***

ولا يفوتنا أن نظام الرق قد أقرته الشرائع كلها دون أن تمسه أو تحد من غلوائه . فقد استخدم قدماء المصريين الرقيق آلة للعمل ، واعتبرته شريعة الهنود من الطبقة الدنيئة ، واستغله الأشوريون والأمم الايرانية لعمل الخبائث المستقبحة التى قضت به خرافات العهد ، وكان مقام الرقيق فى زمن العبرانيين فى مقام الماشية ، وشاع فى زمن الإغريق ولم ينكره حتى الفلاسفة من أمثال أرسطو وغيره ، وكان فى زمن الرومان سلعاً

تباع بالمزاد ، والمسيحية نفسها لم تفكر فى تغيير نظامه ، بل أقرته إقراراً شاملا ، ففى رسالة لبولس الرسول يوصى فيها الأرقاء : بأن يطيعوا مواليهم مع الخوف والرعب كما يطيعوا المسيح ، وذكر أن هذه تعاليم يسوع المقدسة ، أما الإسلام فلم يقره ، وأوجد العوامل التى تقضى عليه رويدا رويدا ، وفى نفس الوقت أحسن إلى الرقيق وأكرمه :

«واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً . وبالوالدين إحساناً وبذى القربى ، واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » (النساء ٣٦)

وما أكثر وصايا الرسول (ص) بالرقيق ، حتى أن آخر عبارة ودع بها الحياة : اتقوا الله فى الصلاة وما ملكت أيمانكم »

وقال : اتقوا الله فى الضعيفين : المملوك والمرأة »

وقال : أوصانى حبيبى جبرائيل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم »

وقد كان بلال العبد أول من أذن على ظهر الكعبة عند فتح مكة ، ودخل النبى الكعبة ومعه ثلاثة : عثمان ابن طلحة صاحب مفاتيحها ، وأسامة بن زيد وبلال ، وقد ذكر عليه السلام أنه سمع دف نعلى بلال بين يديه فى الجنة

هذا ، وقد انقضى عهد الرق ، ولا زال الإسلام محتفظاً بأكرامه للبشرية ، بينما نرى معظم الدول المتحضرة لا تكرم البشرية عامة ، فالأنجليز متعصبون للجنس الانجليزى ، محتقرون لغيره ، وكذلك الألمان والفرنسيون والإيطاليون ، وتعصبهم الأحمق دفعهم إلى استعمار الشعوب الضعيفة واستغلالها استغلالا تأنفه الكرامة والإنسانية . ولم ننس بعد — كيف استغلت أوربا الشعوب الشرقيــة وقوداً لحربين طاحنتين دون رحمة أو عدالة أو مروءة .

ولازالت مشكلة الزنوج فى بلاد العم سام . بلاد الحرية والنور . . تعطينا صورة صادقة على حماقة تلك البلاد التى لاتسوى بين البشر ، بحجة اختلاف اللون ، والتى تعمل على اعتبار الزنوج كمية مهملة ، وسلعة بخسة يحرم عليهم مخالطة البيض ومعاشرتهم ، والتى ابتكرت لهم قانوناً لا يقل حماقة عن قانون الغاب فى العصور المظلمة .

٢ — احترام الفكر

إن الإسلام لم يفرض عقيدته على البشر فرضاً ، ومن مستلزمات ثبات العقيدة وبقائها محتفظة بقوتها الاقتناع بها ، والاقتناع يكون نتيجة التفكير الحر ، والعقيدة الإسلامية ـ وقد مضى عليها زهاء أربعة عشر قرناً ـ لازالت ثابتة بثبوت الرواسى ، وستظل كذلك ـ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لأنها لم تكره البشر على قبولها ، ولم تخش مناقشة العقل لها لقوتها وسلامتها

والإسلام الذى أكرم البشرية ـ إنما أكرمها لأن لها عقولا ، فكان من الطبيعى أن يكرم العقول التى من أجلها أكرم البشرية

والإسلام هو الذى ربى المسلم على الاعتداد بفكره ، حتى لا يكون آلة جامدة ، أو إمعة لاقيمة لوجوده ، فقد يصل المرء بفكره إلى مالا يصل إليه بماله وعلمه ، وما أجمل قول الرسول فى هذا المعنى :

« لا يكن أحدكم إمعة يقول : أنا مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم ..

ومع أن الرسول لا ينطق عن الهوى ، لم يكن مستبداً بفكره ، وعاش حياته معتداً بآراء وأفكار أصحابه ، مستجيباً لأمر الله تعالى : « وشاورهم فى

الأمر » استجابة عملية ، فقد استشار أصحابه فيما يكون به الاعلام للصلاة وأخذ برأى عمر ، واستشار أصحابه فى أسرى بدر ، وأخذ برأى أبي بكر ، وعاتبه الله عتاباً أيد فيه رأى عمر ، واستشار أصحابه فيما يجلس عليه وقت خطبة الجمعة ، وأشير عليه باتخاذ المنبر ، وأشار عليه سعد بن معاذ ببناء عريش له فى بدر فقبل ، وأخذ برأى سلمان الفارسى فى حفر خندق حول المدينة ففعل ، ونزل على رأى أصحابه وخرج لملاقاة المشركين عند أحد ، وأقر رأى أصحابه فى قتال أهل الطائف ، واتخاذ الخاتم حين كتب إلى الروم .

وليس هناك أدل على احترامه آراء أصحابه وعدم استبداده برأيه ، من قوله عليه الصلاة والسلام : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيي فإنما أنا بشر »

ولا نعتقد أن الإسلام الذى احترم الفكر يقر بحال من الأحوال الحجر عليه ، وهذه سبة قد ألصقها به أولئك الجامدون المتزمتون ، الذى هم أشد خطراً على الإسلام من الجاحدين المتمردين

إن الله تعالى لم يندد بفكر رسولين من أولى العزم من الرسل حين طلب الأول من ربه وهو (إبراهيم) عليه السلام أن يريه كيف يحيي الموتى ، وحين طلب الآخر وهو (موسى) عليه السلام أن يرى ذاته

« وإذ قال إبراهيم : رب أرنى كيف تحيي الموتى ، قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ، قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم (البقرة ٢٦٠)

« ولما جاء موسى لميقاتنا ، وكلمه ربه ، قال : رب أرنى انظر إليك ، قال : لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى

فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ـ قال : يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالتى وبكلامى ، فخذما آتيتك وكن من الشاكرين (الأعراف ١٤٣، ١٤٤)

٣ ـ اجلال العلم

إن الإسلام يجل العلم ويحترمه ويكرمه ، وحث المسلمين على تحصيله باعث لهم على سبق الأمم فى الرقى ، لأن العلم من أهم الوسائل لإنهاض أمتهم وتقدمها ، والآيات التى أوردها القرآن الكريم لحفز المسلمين على العلم تدل على مدى إكرام الإسلام له .

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » . (الزمر ٣٩)

« وزاده بسطة فى العلم » . (البقرة ٢٤٧)

« ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم » . (آل عمران ٧)

« شهد الله أنه لا إله إلا هو وأولوا العلم قائماً بالقسط » . (آل عمران ١٨)

« بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » . (العنكبوت ٤٩)

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . (المجادلة ١١)

« يؤت الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً »
(البقرة ٢٦٩)

***

وهناك شبهة صاغتها عقول أولئك الذين لايحسنون بالإسلام ظناً ، ولا يؤمنون بالحقائق لعمى فى قلوبهم ، وغل فى صدورهم ، وصغار فى نفوسهم يقولون : إن الإسلام يكرم العلم الخاص بالدين فحسب ، والواقع أن الإسلام يكرم العلم أيا كان نوعه ، مادام يعتبر وسيلة لتفقه المسلمين فى دينهم أودنياهم ، ولو كان الإسلام يشجع علوم الدين وحدها لما كان هناك داع لأن يقول

عليه السلام : « اطلبوا العلم ولو بالصين » وذلك فى وقت لم تكن قد أشرقت فيه شمس الإسلام على الصين ، ثم إن القرآن حث كثيراً على التفكير فى خلق السموات والأرض والليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم والبحار والجبال وغيرها ، ليستحث المسلمين على البحث فى علومها التى لاتنتهى والتى لاتقف عند حد .

« ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ماخلقت هذا باطلا » (آل عمران ١٩١) .

« يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس » (البقرة ١٨٩) .

« هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ماخلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون » (يونس ٥)

« وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ، لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا » (الإسراء ١٢)

« هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً » (البقرة ٢٩)

« أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم » (الفرقان ٧)

« وماخلقنا السماء والأرض ومابينهما لاعبين » (الأنبياء ١٦)

* * *

إن الإسلام يكرم العلم الذى تسعد به الإنسانية يكرم علوم الدين لأن فيها رقى الفكر ، ويكرم علوم الدنيا لأن فيها نهضة الأمم — ولا ينكر أن أساطين علوم الفلك والطب والكيمياء والموسيقى وما إليها هم من نوابغ المسلمين ومؤلفاتهم تشهد بذلك .

وليس هناك أدل على إجلال الإسلام للعلم من إجماع المسلمين على أنه إذا تعارضت الآية القرآنية مع النظريات العلمية ، تؤول الآية القرآنية ولا تكذب النظريات العلمية .

إذن فالإسلام يكرم العلم ويجله ، العلم الذى نهضت به أوربا وأمريكا ، والذى سينهض به الشرق الإسلامى عماقريب إنشاء الله — لأن الإسلام حث على طلبه ، وأوصى بمواصلة تحصيله لأنه بحر لا ساحل له ، وما أعظم القرآن حين دفع بالمسلم إلى المغامرة فى طلب العلم حين قال ! « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، وحين قال : وقل رب زدنى علما ، وما أجمل قوله عليه السلام فى هذا المعنى :

« لا يزال المرء عالما ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل »

٤ — تطور

إن التطور طبيعة من طبائع الإسلام ، لأن رسالته لم تتقيد بزمان أو مكان ، فكان لزاما عليه أن يكون متطوراً مسايرا للحياة . وهذا التطور من أعظم ما يمتاز به ، وقد وضع الإسلام الأسس التى يقوم عليها التطور لتضىء الطريق للأجيال المسلمة القادمة فتكون على بصيرة من أمرها ، وتتخلص من رقة الجمود التى قد تلصق به زوراً وبهتانا .

لقد منى الإسلام بفئة بائدة ، اتخذت الجمود والتزمت شعاراً لها ، وحسبت أن فى جمودها وتزمتها تأييداً للاسلام ، وهمم هذه الفئة لا تشتعل إلا لحساب شكليات وسفاسف لا تمت إلى معانى الإسلام الخالصة بسبب ، ومن الخطل أن نناقشها لأنها أهون من أن تناقش .

***

عاش المسلمون الأولون مثلا عيشة تلائم عصرهم وقتئذ . فليس من العقل أن نفرض تلك الحياة على مسلمى القرن العشرين — نعم إن هناك

معانى سامية ، وأصولا راسخة يجب أن تظل كما هى ، لأنها من شأنها أن تصون كيان الإسلام ، ولا يمكن أن يكون هذا الدين الحنيف مناهضا فى يوم من الأيام للحضارة أو المدنية مهما بلغتا ، وما دامتا تهدفان إلى خير الإنسانية والبشرية . .

إن الإسلام يؤيد التطور ولا يقر الجمود بحال من الأحوال ، لأن الجمود لا ينهض بخير أمة أخرجت للناس — وأنت حين ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرم على المسلمين فى بادىء الأمر زيارة القبور ، لأنهم حديثو عهد بالوثنية تأميناً على عقائدهم ، ثم يحل زيارتها بعد أن تستقر العقيدة فى نفوسهم — وحين ترى أن الله فرض على رسوله وأصحابه قيام الليل فى مكة لأن المسلمين بها كانوا فى أمس الحاجة إلى الاتصال الروحى بالله عز وجل ، ثم جعله تطوعا لهم فى المدينة لحاجتهم إلى الراحة ليلا ، بعد أن انتقلوا إلى حياة النضال والكفاح .

وحين ترى أن تشريع تحريم الخمر جاء تدريجياً ، فوضح التشريع أولا أن اثم الخمر أكبر من نفعها ، ثم منع ثانياً أن يقرب الصلاة سكران ، ثم أكد ثالثاً أنها رجس من عمل الشيطان ونهى عنها — وحين ترى أن عمر بن الخطاب أوقف حد السرقة فى عام المجاعة ، وحذف سهم المؤلفة قلوبهم من الزكاة لأن الإسلام لم يعد فى حاجة إليهم ، حين ترى هذا كله وغيره ، ولا تجد مجالا للشك فى أن الإسلام دين يقر التطور ويحفل به .

ثم انظر مثلا إلى قوله تعالى : « ويخلق ما لا تعلمون — وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة — سنريهم آياتنا فى الآفاق » — فهلا فى هذه دليل واضح على تأييد الإسلام لسنة التطور .

ثم إن سهولة الإسلام ويسره تأييد أيضا لسنة التطور فى الإسلام ، فالإسلام كما يقول الرسول يسر لا عسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، وكما يقول الحق تبارك وتعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » .

***

إن الإسلام كما أراده الله سبحانه ، يؤيد التطور ويقبله ، لأنه دين يساير الحياة ، وتلك الفئة الجامدة المتزمتة شر وبلاء على نهضة الإسلام .. الإسلام الذى أعلن الثورة منذ اللحظة الأولى على القديم الفاسد . والجامد المتصلب ، من عقائد وغيرها ، وندد بأفكار الذين أبوا إلا العكوف على ما كان عليه الآباء والأجداد ، وهذه الفئة هى التى عرضت صفحة الاسلام الناصعة لتكون غرضا لسخرية أعدائه والكيد له ، والحط من قدره وشأنه .

٥ — الدين والدنيا معا

يعتقد كثير من البلهاء أن الإسلام لا يحفل بالدنيا ، ويعتبرها قذى وأذى ، ويحفظون كثيراً من الأحاديث المختلفة ، ويؤولون كثيراً من الآيات بما يتفق وعقليتهم ترويجا لمذهبهم الباطل الأحمق .

ولست أدرى أى معنى فى خلق البشر ثم صرفهم عن الدنيا وحثهم على احتقارها ، وأى معنى فى خلق الدنيا ، ثم جعلها قذى وأذى . . ؟

ومذهب هؤلاء البلهاء من شأنه أن يشل حركة العالم ونظامه ، ويعطل نموه ونهوضه ، ويلقى عليه رداء الدعة والخمول . . وقد كان سببا فى ترويج الطعن فى الإسلام لكثير من أعدائه المتربصين به الدوائر . .

والواقع الذى لا مرية فيه ، أن الإسلام يحفل بالدنيا ويعتز بها ، لأنها مطية الإنسان إلى الآخرة ، ولأنها ميدان تتجلى فيه آيات الله التى لا تعد

ولا تحصى ، ولأنها مهبط الأديان السماوية التى تنير السبيل إلى الخالق تبارك وتعالى — وكيف يحتقر الإسلام الدنيا ، ولم تجىء رسالته إلا لتكوين أمة ناهضة راقية ، تمهد طريق الخير والسعادة للبشرية فى الدنيا والآخرة .

إن أهم ما يمتاز به الإسلام ، أنه دين روحى ومادى ، لا يقر طغيان الروحية على المادية ، كما لا يقر طغيان المادية على الروحية ، واعتبر الروحية وسيلة لسمو النفوس ، والمادية وسيلة لصون كيانها ، ونمو نهضتها .

وإذا كانت المسيحية تقر الروحية وحدها ، وتعتبر أن الغنى لن يدخل ملكوت السموات حتى يدخل الجمل فى سم الخياط ، فإن الإسلام ينفر من الروحية التى تحجب المادية وتطغى عيها ، وتعتبر أن الغنى الشاكر يدخل ملكوت السموات قبل الفقير الصابر . .

إن الإسلام يكرم المال لأنه عصب الحياة ، وسماه خيراً فى قوله تعالى :

« إن ترك خيرا الوصية . . » (البقرة ١٨٠) .

ويحث على العناية به ، ليؤدى مهمته فى وقت الحاجة ، وقد كان فى أصحاب رسول الله من يملكون أموالا طائلة ، كعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وغيرهما ، أفادت الدعوة الإسلامية فى مواقف كثيرة ، ولولا هذه الأموال لقصرت الكتائب الإسلامية فى القيام بمهمة الدفاع عنها .

والذين يريدون من الإسلام أن يكون دنيا لا دينا ، يؤيدون تعطيل نواميس الحياة ، وهذا مالا يقره عقل سليم ، فالإسلام دين عملى يحث على العمل ، ويستنهض الهمم ، ويبتعث العزائم ، ويندد بالبطالة التى تشوه بهاء الحياة وجمالها .

« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله » (الجمعة ١٠)

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » (الملك ١٥)

لقد رأى رسول الله أبا إمامة فى المسجد فى غير وقت صلاة ، فأنكر عليه البطالة التى دفعته إلى القبوع فى المسجد ، ولما أخبره بأن هناك هموما لزمته ، وديونا كدرت صفوه ، علمه دعاء جاء فيه : « وأعوذ بك من العجز والكسل » ليحرضه على السعى حتى يقضى الله دينه ويزيل همه ، وقال صلى الله عليه وسلم لمن ذكروا له عبادة رجل ، وأنهم هم القائمون بقضاء مصالحه : « كلكم أفضل منه »

بل لقد حث الرسول على النشاط بالتبكير فى العمل فقال :

« الرزق فى البكور »

وقال : « إذا صليتم الفجر فلا تناموا عن أرزاقكم » وحث على استثمار الأرض فقال : « اطلبوا الرزق فى خبايا الأرض » وحرض على التجارة فقال : « أوصيكم بالتجار خيرا ، فإنهم برد الآفاق ، وأمناء الله فى الأرض » وحذر التواكل فقال « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » واعتبر أن الهم فى طلب المعيشة يكفر الذنوب التى لا يكفرها الصوم ولا الصلاة ، وأن عثرة فى كد حلال على عيل محجوب ، أفضل عند الله من ضرب بسيف حولا كاملا لا يجف دما مع إمام عادل ، وأنه من أمسى كالا من عمل يده ، أصبح مغفورا له ..

* * *

دولة

« إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ،
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ » .

جاءت المسيحية لتنشر تعاليم ، وتبث وصايا فحسب ، ولم تكن لها مهمة غير هذا — وجاء الإسلام بعدها ليغرس عقائد جديدة سليمة ، وينشر تعاليم حية سامية ، ثم ليؤسس دولة فتية بعد أن تتمكن العقائد الجديدة من القلوب ، وتتركز التعاليم الحية السامية فى النفوس ، وللمهمة الأولى لبث الإسلام فى مكة ثلاث عشرة سنة يناضل الوثنية ليقيم على أنقاضها صرح عقيدته ، ويرسى على آثارها قواعد تعاليمه — وللمهمة الثانية انتقل الإسلام إلى المدينة المنورة ، وأخذ يمهد لقيام دولة قوية تحمى العقيدة ، وتجمع شتات أتباعها .

وقد يقول قائل : إن المسيحية كانت دولة فى يوم من الأيام ، وتاريخ الدولة الرومانية واضح لا يحتاج إلى برهان ، ونحن نقول له : إن ذلك كان محض مصادفة ، اقتضتها ظروف سياسية ، وخلقتها وحدة العنصر لا وحدة الدين ، ولم تكن هناك دولة مسيحية موحدة بالمعنى الصحيح تحقيقاً لهدف من أهداف المسيحية ، وإنما كانت عدة دول ، تعصبت كل منها لدينها — ودفعها الكيد للاسلام والحقد لنهضته أن تؤازر زميلاتها .

حين غلب الطليان على أمرهم فى شمال أفريقيا جاءت الطائرات الأمريكية لمساعدة إيطاليا المسيحية بدافع من التعصب الأحمق ، وفى مهزلة فلسطين ناصرت الصليبية الغاشمة الصهيونية الفاجرة ضد العرب المسلمين وهكذا نشاهد دائماً فى الهيئات الدولية تعصب الدول المسيحية ضد قضايا الشعوب الشرقية المسلمة .

أما الإسلام ، فالدولة هدف من أهم أهدافه ، وركن من أقوى الأركان التى يعتمد عليها ، وضرورة تقتضيها طبيعته .

فلا يخفى . أن الإسلام ثورة فكرية قبل كل شىء تهدف إلى إنقاذ الإنسانية من غوائل الفتن وجرائر المحن ، وتخليص البشرية من بين مخالب العناء والشقاء .

ولايخفى . أيضاً ، أنه كان على الإسلام أن يغزو بعقائده الجديدة العالم كله ، لأن رسالته ستظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ومن ثم كانت رسالة الإسلام فى حاجة إلى قوة تحمى العقيدة من نزوات الجهل والحمق والاستبداد ، ولن يكون أثر لقوة مهما بلغت ، إذا لم تشرف عليها وتهيمن دولة ذات منهاج وأنظمة . وذات سياسة موحدة ، واتجاهات متحدة .

ولست أدرى أى أثر لعقيدة مهما كانت قوتها أن تغزو العالم بأسره ، إذا لم يتول رعايتها دولة توحد بين صفوف أتباعها وتنظم شئون دنياهم ، وأمور حياتهم ، وتحوطهم بسياج من القوة يصد عنهم شرور الكائدين ، ومكر الماكرين وبغى الحاسدين . ؟

ولقد بدأت سياسة التكتل والتجمع فى مكة ، فكان المسلمون بين ربوعها أشبه بدويلة لها طابعها الخاص ، تمهيدا لدولة كبرى منتظرة ، يبدأ بتأسيسها فى يثرب ، والقرآن الكريم فى مكة نفسها (خلال المرحلة الأولى للاسلام) أشار من طرف خفى إلى هذا العزم الذى استتر حيناً فى مكة ليظهر سافراً فى يثرب . . لا لبس فيه ولا غموض .

ففى سورة الأنبياء وهى مكية يلفت القرآن أنظار المسلمين إلى أهمية تقوى الله وطاعته ، لأن وراثة الأرض لن تكون إلا لعباد الله الصالحين وهذه الوراثة ستشمل الأرض كلها لأن رسالة محمد رحمة للعالمين .

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون — إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين — وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (الأنبياء ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧)

وفى سورة الروم وهى مكية أيضا ، ينبه القرآن إلى أهمية التكتل ، وضرورة تدعيمه بالتقوى والصلاة التى هى رباط متين يربط بين القلوب ، كما هو يحذر المسلمين مغبة التفرق الذى يضعف من كيانهم ، ويعمل على انهيار دولتهم .

« فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ذلك ، الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون . منيبين إليه واتقوه ، وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بمالديهم فرحون » . (الروم ٣٠—٣٢)

ولقد بدأ رسول الله فى اللحظة الأولى من وصوله إلى يثرب فى تكوين الدولة الإسلامية تكوينا سافرا لالبس فيه ولا غموض . آزر بين الأنصار والمهاجرين وآخى بينهم ، وعاهد الجميع على أن يكونوا يدا واحدة على قلب رجل واحد فى الخير والشر واليسر والعسر ، ثم بدأت آيات التشريع تنزل على الرسول لتنظيم حياة الدولة الوليدة وتنسيق شئونها .

أسس

لقد حرص الإسلام كل الحرص على أن تقوم دولته على أسس متينة قوية ، تصون بناءها ، فتستطيع أن تحقق الخير الذى تنشده لصالح البشر ، وسعادة الإنسان ، ويجب أن تظل ثابتة ثبوت الرواسخ لا يؤثر فيها مؤثر ، ولا يشوهها مشوه ، ولا تمتد إليها يد لتنال من قدرها ، وتبطش بحقائقها .

وأول هذه الأسس هى الحكومة الصالحة العادلة التى تهدف إلى خير الدولة وخير شعبها ، وتهيمن على شئونها ومصالحها هيمنة تتجلى فيها العدالة والاستقامة .

وثانيتها شعب حر جرىء ، شهم شجاع ، لا يخاف فى الحق لومة لائم ، ولا يخشى غير جبار الأرض والسماء .

وثالثها ضمان جماعى يصون الدولة بسياج من العزة والمهابة .

ورابعها ضمان اجتماعى يحفظ لها كرامتها .

١ – حكومة صالحة

هى من الدولة بمثابة الرأس من الجسد ، فإذا صلحت صلحت الدولة وإذا فسدت فسدت الدولة ، ومهمة الحكومة خدمة الدولة والسهر المتواصل على راحتها ، وتحقيق الكرامة والحرية لها وتحقيق العدالة الاجتماعية والضمان الاجتماعى بين أفرادها ، وتأمين حياتهم ضد عدوان الفقر والجهل والمرض ، وبغى الأقوياء واستبداد الأشرار ، والسعى المتواصل لرفع مستواهم الأدبى والمادى والاجتماعى ، وإنعاشهم الإنعاش الذى يليق بخير أمة أخرجت للناس .

***

لقد وضح لنا أن الإسلام كان يهدف من أول الأمر ، إلى تكوين دولة مسلمة واحدة ، ومما لا ريب فيه أيضا أنه كان يهدف إلى إيجاد حكومة واحدة تتولى شئون الدولة الواحدة ، وتتمثل هذه الحكومة فى خليفة يكون بمثابة الرئيس للدولة ، وفى ولاة يتولون شئون الأمصار يكونون بمثابة أعوان للخليفة ، ورعاة لشئون ممتلكات الخلافة .

وهؤلاء الولاة يختارهم الخليفة ممن يطمئن إليهم فى كفاءتهم ونزاهتهم . وهو مسئول أمام الرأى الإسلامى العام عن تصرفاتهم ، ويجب عليه ألا يكتفى بإيكالهم إلى ضمائرهم ، بل يحتم عليه تعيين الرقباء عليهم ، وبعث الأعين على أحوالهم ، بل يحتم على الخليفة أن يقف بنفسه على أحوال ولاته من ألسنة الشعوب التى يتولون رعايتها ، وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يجعل من موسم الحج موسما عاما ، تعرض فيه أعمال الولاة والعمال ، ويستمع إلى أصحاب المظالم والشكايات ويطلع على تقريرات الرقباء المنبثين فى كل مكان .

والدولة الإسلامية ليست نهبا ولا ضيعة للخليفة ولا للولاة ، فكلا المنصبين يعتبر فتنة وبلاء ، وكلا من الخليفة والوالى يعتبر خادما لرعيته . وهذه الاعتبارات هى التى تحول دون وجود المحسوبية والتكالب على المنصب ، والاستبداد فيه .

ومتى اعتبرت الدولة الإسلامية ملكا للمسلمين بدون تفريق ، لم يكن هناك محل للمحسوبية ، ولا يغرب عنا أن أول سهم صوب إلى صدر الإسلام كان بسبب المحسوبية ، فلقد كان يراعى فى المناصب فى عهد رسول الله (ص) الكفاءة والنزاهة ، وسار على نهجه من بعده صاحباه أبو بكر وعمر ، ولم يرو أن الرسول ، وصاحبيه قد ولوا أحدا أمرا لقرابته منهم ، فكثيرا ما كان يستخلف الرسول على المدينة بلالا الحبشى وسلمان الفارسى وصهيبا الرومى ، ومولاه زيد بن حارثة ، وابن أم كلثوم الأعمى .

ثم جاءت خلافة عثمان بن عفان ، فاعتقد أن تقريب عصبيته ، وتوليتهم مناصب الدولة مما يقوى شوكة الخلافة ويصون أركانها ، ولكن بنى أمية (عصبيته) استغلوا ضعفه ، وقلبوا الخلافة الإسلامية ملكا يمرحون فيه ويرتعون . .

وثار الرأى العام الإسلامى ، وكانت الفتنة التى كان ضحيتها عثمان رضى الله عنه ، والإسلام نفسه الذى مزقت وحدته . ولحقه اضطراب لا زالت نيرانه تتأجج إلى اليوم .

ولم يفت الخليفة الأول أن يشير إلى هذه المسألة ، فقد قال حين أوصى بالخلافة لعمر :

« أترضون عمن أستخلف عليكم ؟ فإنى والله ماألوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قرابة . . »

ثم إن عمر احتاط فأوصى الخليفة بعده محذرا إياه هذه المسألة الخطيرة فقال لعلى :

« إن وليت من أمر المؤمنين شيئا فلا تحملن بنى عبد المطلب على رقاب الناس » .

وكذلك قال لعثمان ، ولعبد الرحمن بن عوف .

ومتى اعتبرت المناصب بلاء وفتنة لم يكن هناك محلا للتكالب عليها ، وقد أشار إلى ذلك الرسول (ص) وحذر المقربين إليه فتنة المناصب ، روى الشيخان عن أبى هريرة (ض) عن النبى (ص) أنه قال :

« إنكم ستحرصون على الإمارة ، وستكون ندامة يوم القيامة »

ولقد قال لأبى ذر

« يا أبا ذر إنى أراك ضعيفا ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى: لا تأمرن على اثنين ، ولاتولين مال يتيم »

والخليفة الأول لم يكن حريصا على الخلافة بل أرغم عليها بعد تمنع وإباء شديدين .

وعمر بن الخطاب لم يكن ليقبل الخلافة لولا أنه اعتقد فى نفسه الكفاءة ، والقدرة على صيانة الدولة ، ولم يكن حرصه على المنصب ذاته ، وإنما كان حرصه على حفظ الدولة من التصدع .

ولقد قال فى أول عهده :

« أيها الناس : إنى قد وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم . وأقواكم عليكم . وأشدكم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم ؛ ماوليت ذلك منكم »

ولقد كان مجرد إبداء الرغبة من مسلم فى الولاية أو أى منصب من المناصب ، كفيلا بالحيلولة بينه وبين تحقيق رغبته ، فربما نشأت الرغبة

عن شهوة السيطرة ، ولا يطمئن إلى من تحركه شهوة السيطرة لا رغبة نفع الدولة الإسلامية . روى الشيخان عن أبى موسى قال : دخلت أنا ورجلان من بنى عمر على النبى (ص) فقال أحد الرجلين : يارسول الله أمرنا على بعض ماولاك الله . وقال الآخر مثل ذلك . فقال إنا والله لانولى على هذا العمل أحدا سأله ، ولا أحدا حرص عليه .

أراد عمر بن الخطاب (ض) أن يولى رجلا من المسلمين عملا . ولكن الرجل بادر بطلب عمل فعدل عمر عن توليته . حين علم حرصه عليه . حتى لايستجيب لشهوته .

***

ومتى اعتبر الخليفة أو الأمير أو العامل خادماً للرعية ، لم يكن هناك محل للاستبداد فى منصبه ، ولا للتأله على من هم دونه ، فقد وكل إليه الأمر ليؤدى عملا يخدم به دينه وأمته ، وهو فرد من أفراد الدولة ، وليس هناك فرق بينه وبين غيره إلا ماكان من عمل وكل إليه بمثابة ابتلاء وفتنة . . . فهذا أبو بكر يقول فى أول خطبة له :

« إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم . . . »

وهذا ابن الخطاب يقول بعد أن بويع بالخلافة :

« إن الله ابتلانى بكم ، وابتلاكم بى ، وأبقانى فيكم بعد صاحبىّ ، فلا والله لايحضرنى شىء من أمركم فيليه أحد دونى ، ولا يتغيب عنى فآلو فيه عن أهل الصدق والأمانة ، ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم ، ولئن أساءوا لأنكلن بهم » .

وكذلك قال عمر بن عبد العزيز : « لست بخير من أحدكم ، ولكنى أثقلكم حملا » .

الولاة : يعينهم الخليفة ، والخليفة يعينه الشعب المسلم ، لأن الإسلام يحرص على استقرار الحكومة ، ليضمن استقرار الدولة . . .

وعلى الخليفة أن يتقى الله فى تعيين الولاة الذين لا يرهقون الشعوب ، وهو المسئول عن تصرفاتهم أمام الخالق وأمام الشعوب ، وعلى الشعوب المسلمة أن تتقى الله فى اختيار الخليفة الكفء الجدير بتحمل العبء الثقيل والمسئولية الخطيرة الشاقة .

والرسول (ص) كان حريصاً حين شعر بدنو أجله على ألا يعهد بالخلافة لأحد من بعده ليعتمد المسلمون على أنفسهم فى اختيار الخليفة إثباتا لوجودهم واشعارا للخليفه بأهمية المنصب ، وتكريما لنفسه حين وضع المسلمون ثقتهم فيه .

والخليفة الأول أبو بكر لم يفرض عمر بن الخطاب من بعده على المسلمين وإنما أبدى رأيه كفرد منهم ، وكذلك فعل عمر فأبدى رأيه كفرد ، ونصح المسلمين أن يختاروا واحداً من ستة : عثمان ، على ، سعد بن أبى وقاص ، عبد الرحمن بن عوف ، طلحه ، الزبير ، وقتل عثمان ، فاختار المسلمون عليا .

وليس الإسلام مسئولا بعد هذا عما وقع من اضطراب بشأن الحكم ، فالذى يهمنا أن الإسلام يقرر أن تولية الخليفة حق من حقوق الشعب ويجعل هذا الحق أساساً يقوم عليه الحكم الصحيح — أما الحكم الوراثى فلا يقره الإسلام ويتنكر له أشد التنكر ، لأن الدولة تحتاج إلى الخليفة الأصلح لقيادة الدولة ، ومتى كان تولية الخليفة من حق الشعب سهل على الشعب اختيار الخليفة الأصلح .

ولا يمكن أن يقر الإسلام الحكم الوراثى الشبيه بالحكم الإقطاعى ، فينقلب الأمر إلى ملك ، وهناك فرق بين الحكم والملك .

فالحكم أنظمة عادلة تخدم الرعية ، والملك أهواء فاسدة تستبد وتستخف بها .

والحكم الوراثى يفرض الحاكم فرضا ، ولو كان أبله أو معتوها أو ماجنا أو عربيدا .

وكم لاقت الأمة الإسلامية من صدعات وهزات بسبب الحكم الوراثى البغيض .

وقد كان معاوية ابن أبى سفيان أول من ابتدع الحكم الوراثى حين بايع لابنه يزيد من بعده ، وعليه يقع الوزر ، فقد أحال الخلافة إلى ملك استبدادى لا يقر بوجود الشعب إقراره بقوة السيف والسوط .

ومهد هذا الاجراء الخطير لنمو الحزبية والعصبية والتنافس البغيض على نيل السلطة ، لأن فيها مغنما لعصبية الخليفة ، كما مهد هذا الإجراء أيضا إلى انقسام الدولة الإسلامية ، وإلى تعدد الخلافة فى وقت واحد ، فقد حدث أن كانت الخلافة العباسية فى الشرق والفاطمية فى مصر ، والأموية فى الأندلس كل ذلك فى آن واحد .. وجر إلى طمع الولاة فى الحكم ، واستعدادهم لتمزيق الدولة الإسلامية إلى دويلات ، واستعانتهم بأعداء الدين لاستقلالهم عما يطمعون فيه من البلاد كما حدث فى دولة الأمويين بالمغرب ، ودولة العثمانيين خلال اضطرابها . . . ولقد أنبت هذا الإجراء الخطير عقائد فاسدة ألصقت بالإسلام إلصاقا ، وفرقا تتنازع وتتشاحن باسم الإسلام .

كان يخيل إلى الخليفة العباسى أنه يحكم بتفويض من الله لا من الشعب ، ويرجع ذلك إلى أن الفرس وهم مؤسسو الدولة العباسية يقولون بنظرية التفويض الإلهى ، بمعنى أن الله يختار الخليفة ليحكم طول حياته ثم يخلفه أقرب الناس عصبية إليه ... وهكذا ، ومن يخلفه من غير أسرته يعتبر مغتصباً .

كان هذا الاستبداد يحمل الخليفة على أن يوصى بولاية العهد لأكثر

من واحد ، فيشعل بذلك نيران الشقاق فى الأسرة الواحدة ، وكان للشيعة مذهبهم فى أن تحصر الخلافة فى بيت آل النبى ، ولو كان هذا حقا لأشار إليه القرآن أو على الأقل رسول الله ...

وكان للمرجئة مذهبهم فى أن حكم بنى أمية لا شىء فيه ، وحكم بنى أمية حكم استبدادى لا يقره الإسلام بحال من الأحوال .. وإنما سمى هذا النوع من الحكم حكما استبداديا ، لأن الخليفة قبل موته كان ينتزع الخلافة لابنه من بعده على رغم من جماعة المسلمين ، ومن توانى عن البيعة نكل به .

وقد يقال : إن الخلافة فى الصدر الأول قبل حكم الأمويين لم تكن شورية بالمعنى الصحيح ، إذ كان يعتمد فى اختيار الخليفة على المبرزين من مسلمى العاصمة .

والواقع أن هذا اقتضته ظروف الوقت ، فالمسلمون بالمدينة هم أقرب الناس وألصقهم وأدراهم وأعرفهم بكنه أسرار الدعوة الإسلامية ، وكل هذا يؤهل كبار الدولة فى عاصمتها لأن يكونوا جديرين بتمثيل الشعب لاختيار الخليفة الذى يسوس الدولة ويرأس شعوبها . . .

ولو أن نظام الشورى فى الحكم عاش أمدا لتطور إجراء الاختيار . واستطاع كل فرد من أفراد الدولة الإسلامية إبداء رأيه دون إرغام أو إكراه .

وقد يقال : إذا كان الإسلام لا يقر الحكم الوراثى . . فلم سكت المسلمون منذ حكم معاوية إلى هذا اليوم ، ولم لم يقاوموا هذا الخروج على أنظمة الإسلام ؟ ونحن نقول : إن استبداد الخليفة وطغيانه وجبروته ألجم المسلمين وأسكتهم ، ولم يعدم المسلمون منكرين على استبداد الخليفة ، ولكن كان جزاؤهم القتل بحجة أنهم مثيرون للفتنة خارجون على الجماعة . . . !

لم يكن معاوية (المستبد الأول) ، يحكم باسم الإسلام ، ولـكنه كان يحكم باسم عصبيته أولئك الذين عاثوا فى الأرض فسادا وطغيانا

وعلى كل فالإسلام يقرر وليس مسئولا بعد ذلك عن استبداد أولى الأمر وضعف الرعية وتخاذلها .

وليس ضعف المسلمين وتخاذلهم عدة قرون بمبرر سكوت المسلمين اليوم عن تغيير هذه الأنظمة الفاسدة ، والأوضاع الواهية ، وليس بمبرر تخاذلهم عن تحقيق غاية الإسلام فى نظام الحكم ، وجمع كلمتهم تحت راية واحدة ، وبلادهم فى دولة واحدة .

والخليفة مسئول أمام الله عن رعيته ، ومسئول أمام رعيته عن تصرفاته.

وللخليفة على رعيته حق الطاعة ولرعيته عليه حقوق : أن يحكم فيهم بالسوية ، وأن يحقق لهم الضمان الاجتماعى والجماعى ، وأن يستشيرهم فى الأمر ، وأن يحول بينهم وبين ما يؤذيهم أو من يستبديهم .

وللمنصب على الخليفة حقوق : أن يراقب الله فى ، رعيته وأن يراقب ، الولاة فى تصرفاتهم .

والإسلام الذى لا يقر نظام الحكم الاستبدادى لا يقر أيضا أن يستبد الخليفة فى الحكم ، ويفرض عليه الشورى لأنها أقوى دعامة يقوم عليها الحكم .

والرسول المؤيد من عند الله ، والذى ينزل عليه الوحى يفرض عليه الإسلام ألا يستبد وحده بالحكم ، بل يستشير ، وذلك على لسان القرآن حين قال له : وشاورهم فى الأمر .

وقد كان لأبى بكر وعمر وغيرهما ممن هدى الله من الخلفاء الراشداين مستشارون مخلصون يركن إليهم فى الرخاء والشدة ، والعسر واليسر .

ولم تـكن تحجب نصيحة الناصح عن الخلفاء العادلين من أى فرد من

أفراد الشعب مهما كان شأنه ... كثير منهم كانوا يدعون أفراد الشعب ليستمع إلى نصحهم ، وكثير منهم كانوا يتجسسون ليقفوا على أحوال أنفسهم من ألسنة رعيتهم .

وحق على الخليفة أن يراقب الولاة والعمال فى أحوالهم ، فهو المسئول عن ذلك أمام الله وأمام الرعية .

ولقد كان رسول الله مراقبا لعماله ، محاسبا إياهم ، حاسب أحد عماله فقال هذا الذى لكم ، وهذه هدية أهديت لى ، فقال له (ص) فهلا جلست فى بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا ؟

وقد كان عمر يحصر أموال الولاة قبل تعيينهم ، ليحاسبهم على ما زادته بعد الولاية ، وكان يرصد لهم الرقباء والعيون من حولهم ليبلغوهم ما ظهر وما خفى من أمرهم ، وكان يأمرهم بأن يقدموا إلى بلادهم نهارا ليظهر معهم ما حملوا من مال وأمتعة ، فينقل إليه خبرهم الحراس والارصاد الذين يقيمهم على ملاقى الطريق .

وكان يجعل موسم الحج ملتقى للولاة يحاسبهم ويستمع إلى شكايات الشعوب ، ورأى أن يستكمل الرقابة فكان يقيم شهرين شهرين فى مصر والشام والبحرين وغيرها ويقول فى هذا : « إن للناس حوائج تقطع عنى ، أما هم فلا يصلون إلى ، وأما عمالهم فلا يرفعونها إلى » .

وكان يصادر ما زاد على أموال الوالى ، ويعزله إذ ثبتت عليه شبهة التصرف فى بيت المال .

وكان يرد على الولاة حين يبررون زيادة ثرواتهم بالتجارة بقوله : إنما بعثناكم ولاة ولم نبعثكم تجارا « ولم يفلت من محاسبة عمر من الولاة من لهم قدم صدق فى الدعوة أمثال عمرو بن العاص ، وسعد بن أبى وقاص

وخالد بن الوليد ، فقد حاسبهم وشاطرهم أموالهم ولم يشفع لهم أنهم قواد الدولة الإسلامية الجديدة .

إن قانون « من أين لك هذا » قانون قديم سبق الإسلام إلى تنفيذه على يد رسول الله وخلفائه ، وفى مقدمتهم عمر ، وها نحن أولاء بعد ثلاثة عشر قرنا نثرثر به دون أن نحاول تنفيذه ، وما دام هذا القانون معطلا ، فالسرقة والنهب حق من حقوق كبار الدولة على حساب الشعب البائس المسكين ، واللصوصية مباحة لمن لهم متكأمن حزب أو محسوبية على حساب هذا البلد المنكوب . . . !

ولاشك أن أنظمة الحكم فى بلادنا العربية الإسلامية فاسدة ، وإن كانت فى مظهرها تدل على الديمقراطية . . . عندنا برلمانات ولكن الحكومة أو العصبية أو المال يفرض على الشعب أعضاءها ليمثله تحت قبابها باسمه .

وحكومة الأغلبية نكبة على البلاد ، إذ تستطيع أن تلعب بالبلاد مادام لها فى البرلمان أغلبية تؤيدها — إن حقا وإن باطلا .

وحكومات هذه أحوالها تكون عادة ضعيفة الثقة بشعوبها ، حريصة على إرضاء من ترى فيه القدرة على إقصائها وإدنائها، ولو أنها كانت تستمد قوتها من الشعب لاعتمدت عليه فى تحقيق أمانى البلاد وآمالها .

وهل يعقل مثلا أن يستمر الاحتلال فى مصر والعراق والأردن وبلاد المغرب عشرات الأعوام دون تحقيق الحكومات شيئا غير قتل الحريات ، إلا إذا كانت غير معترفة بوجود شعب يناقشها الحساب العسير . ؟

والشعب مستكين هادىء لا يرغب فى القلق ، وليس مستعدا لأن يلقى من اضطهاد الحكومات الجائرة ما يكدر صفوه ، ولأنه يعلم أن الحكومات لا تعتمد على قواتها فحسب ، ولكنها تعتمد أيضا على قوات المستعمر الرابضة فوق صدر البلاد .

ولذلك أصبح الجور والاستخفاف والطيش طبيعة من طبائع حكومات البلاد المحتلة ، لا تفكر أن أحداً ما يحاول أن ينتزعها منها .

كما أن العدل والتقدير والتفكير السليم طبيعة متأصلة فى حكومات الدول المستقلة الحرة ، لأنها تخشى ثورة الشعب ، وتحسب له ألف حساب ونستطيع أن نقولها عارية من كل جبن : ان هناك عقبتين كأداوين فى سبيل نهضة الشعوب البائسة : هما الحكومات والاستعمار . ولو حطم إحداهما لسلك السبيل إلى الأمام .

ومن الخبل أن يفكر فى وسيلة غير هذه ، لأنه تضياع للوقت فى غير ما نتيجة .

الاستعمار اطمأن إلى تلهى الحكومات بكراسى الحكم وإلى سكتة الشعب تحت سياط حكوماته ..

وستظل الحال كما هى إلى أن يوفق الله من يقودون الشعب من عزلته إلى نيل حقه ، وتحقيق مطالب وطنه — إن طوعا وإن كرها .

٢ — شعب حر

الشعب الحر الأبي هو الدعامة الثانية فى تأسيس الدولة الإسلامية .

من حقه أن يعيش حراً آمنا كريما .

وأول حق عليه أن يعيش جريئا لا يخاف فى الحق لومة لائم . والحرية حق مكتسب له ، لا يمنحه ، ولكن يجالد ويناضل فى سبيل نيله .

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن حرية القول حق من حقوق الشعب فقال :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا — يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما »

(الأحزاب ٧٠ ، ٧١)

كما أشار إلى أن حرية العمل حق مكتسب لهم أيضا حين قال :

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله »

(الجمعة ١٠)

بل لقد اعتبر أبو بكر حرية القول حق كل مسلم حين قال فى خطبته الأولى : إن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى .

وسار على نهجه عمر بن الخطاب فقد قال فى إحدى خطبه : من رأى فى اعوجاجا فليقومه . .

ولقد قال له واحد من المسلمين : اتق الله يا أمير المؤمنين ، فقال أحد الجالسين : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله . فنهره عمر وأسكته وقال له : نعم ما قال . . لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نسمعها . .

ومن حق الشعب أن يعيش آمنـــا من استبداد المستبدين ، وعتو المتكبرين .

والإسلام لايقر استعباد غير المسلمين فضلا عن المسلمين ، وقد صاح عمر ابن الخطاب فى وجه ابن عمرو بن العاص حين بغى على أحد أقباط مصر بعد أن اقتيد منه :

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

ولقد شكا إليه ضعيف اغتصاب أبى سفيان منه جزءاً من أرضه ، فأقبل عليه . وأمسك بناصيته ، ولم يدعه يفلت من قبضته حتى رد الأرض المغتصبة إلى صاحبها .

وقد جعل الخليفة الأول هذا مبدأ من مبادئه فى الحكم فقال فى خطبة العرش الأولى :

ألا ان أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق منه ، وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق له .

فأين هذا مما عليه حالة البلاد الإسلامية اليوم ؟

ان العصبيات الحمقاء لتستبد بالضعفاء والعزل ، ويفرض ذووها سيادتهم عليهم فرضا بسياطهم وعصيهم وجبروتهم وطغيانهم . ؟

ولم يكن هناك من يردع العصبية الفاجرة لأن لها من الحكومات سندا ، ومن الأحزاب البائدة يدا .

ومن حق الشعب أن يعيش كريما لا يستذله الفقر ولا يستعبده الهوان ولا تستبد به الحاجة . . فإذا انتشر الفقر مثلا ، وجب على الحكومة أن تستأصل جذوره ، لا أن تشغله بدريهمات توزعها على الفقراء . . وإذا انتشرت البطالة ، وجب على الحكومة أن تكافحها لا بالملاجىء التى تنمى البطالة ، ولكن بتشجيع الصناعة التى تلتهمها .

وأول حق على الشعب أن يعيش جريئا لا يخشى فى الحق لومة لائم .

ومتى كان كذلك استطاع أن يعيش حرا آمنا كريما .

والتهاون فى حريته وأمنه وكرامته من أهم العوامل على ضياعه وتلاشيه .

إن سر تقدم الدول الغربية وسر حياتها يرجعان إلى اعتزاز شعوبها بحريتها .

فالشعوب هناك تستطيع أن تقيم الدنيا وتقعدها ... وما الملك إلا رمز فحسب ، وما الحكومات إلا أداة تشتغل لخدمة الشعوب .

فى استطاعة الشعب هناك أن يسقط الحكومة فى لحظات ، بل فى

استطاعته أن يجعل من الملك أو رئيس الجمهورية متسولا يطوف حول العالم .

ثارت ثائرة الشعب الأمريكى لأن ترومان رئيس الجمهورية عزل القائد « ماك ارثر » وكان ينتهز الفرصة تلو الفرصة ليصيح فى وجهه : استقل ياباثع « الكرفتتات » واستقبل هذا الشعب القائد المغضوب عليه استقبال الفاتح ، وملأ شوارع نيويورك أكثر من خمسة وعشرين مليون نسمة يرحبون بالقائد المعزول .

والشعوب الغربية لها ألسنة قوية تعبر عن آمالها ، فبرلماناتهم وصحافتهم مثل صادق لقوة هذه الشعوب .

وإن سر تأخر الدول الشرقية وضعفها إنما يرجع إلى تهاون شعوبها فى حرياتها وكرامتها .

فالملك فيها نوع من أنواع الحكم الإقطاعى ، والحكومات لون من ألوان اللصوصية العصرية .

والشعوب هى كبش الفداء . . ترى الحرية حروفا مخطوطة فى الكتب ، وتسمع بالكرامة أحاديث تتناقلها الألسنة .

الشعوب الشرقية مسخرة تسخيرا لا رحمة فيه ولا هوادة ، ومحكوم على آرائها بالكبت إلى الأبد ، وعلى إرادتها بالموت إلى أن تقوم الساعة .

على أن الإسلام ليس له ذنب فى تأخر الشعوب الشرقية وضعفها ، لأنه يعتبر الشعب قوة لا تعدلها قوة ، وأن له أهمية لا يستخف بها ، وقد لفت نظر الحاكم الأول للدولة الإسلامية إلى هذا ، فجاء على لسان القرآن الكريم .

« هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين » (الأنفال ٦٢) .

« يأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » (الأنفال ٦٤)

وكفل الإسلام الشعب حرية قوله وعمله ورأيه ، ولقد مضى عهد طويل على الشعوب المسلمة ظلت خلاله حية لها وجودها ولها كيانها .

كان فى استطاعة الشعب المسلم أن يناقش أبا بكر الحساب وهو ما هو عليه من ورع وتقوى وإخلاص ، وأن يناقش عمر وهو ما هو عليه من قوة وعدالة .

لقد تصدى لعمر وهو على المنبر مسلم من أفراد الشعب ليقول له : لا سمع ولا طاعة . . فقال له عمر : ولمه ؟ قال لأنك ميزت نفسك عن بقية المسلمين . . أعطيت كل فرد ثوبا واحدا ونرى عليك أكثر من ثوب ، فنادى عمر ابنه عبد الله لينقذه من هذا الإحراج . فقال عبدالله : إنى قصير وما زاد من ثوبى وهبته لوالدى ليكمل به ثوبه ، فقال المعترض على الفور : إذن فالسمع والطاعة

حتى خلال عهد بنى أمية المستبدين لم يعدم الشعب أحرارا لا يخشون فى الحق لومة لائم .

« قال أبو حازم لسليمان بن عبد الملك : إن آباءك قهروا الناس بالسيف . وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة المسلمين ولا رضا منهم .. وحين طلب منه سليمان أنه يدعو له قال : اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخيرى الدنيا والآخرة ، وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما نحب ونرضى . . . »

فهل يوجد مثل هذه الشجاعة فى شعب مسلم اليوم ؟ ما أكبر الفرق بين إيمان أبى حازم وهو يدعو للخليفة فيقول له : وإن كان عدوك فخذ بناصيته . وبين إيماننا نحن الشعوب المسلمة ، نحن الذين لا نكتفى بالسكوت عن ظلم الملوك وحكوماتهم ولكن نأبى إلا أن ننافق نفاقا يظهرنا بمظهر

الهوان والصغار ، وهل هناك أدهى وأمر من أن يتضح للجميع فسق السلاطين وفجورهم وبغيهم وعتوهم ، ثم لا تنقطع الألسنة عن الدعاء لهم من فوق المنابر وفى كل مناسبة ، ونعتهم بالصلاح والتقوى والعدل زوراً وبهتانا

الشعب الحر الأبى الجرىء هو الذى وحده يستطيع أن يصون كرامة بلاده ويصد عنها غوائل الاستبداد والطغيان . والشعب الجبان لا يستطيع أن يعمل شيئا غير الرضا بما قدر ، والتسليم لحكوماته الباغية التى تلعب به .

***

منذ نصف قرن تقريباً حاولت شركة انجليزية أن تحتكر التبغ فى إيران ، فأصدر العلماء فتوى بتحريمه ، وثارت ثائرة الشعب وأحاط بقصر الشاه عازماً على قتله أو فسخ عقد الشركة ، وكان أن فسخ الشاه عقد الشركة بعد أن دفع نصف مليون ليرة تعويضاً للشركة — ومحاولة ميل الشاه إلى الإنجليز كانت كفيلة بقتله بيد واحد من أفراد شعبه

وها نحن أولاء على أبواب المعركة الإيرانية بشأن تأميم البترول، ولقد أدى الشعب واجبه ، فقتل رئيس الوزارة الذى عرف بمعارضته للتأميم .. ووجد القاتل من يشجعه ويؤيده ، وبينما كانت الحكومة تضع الأغلال فى يديه كان الشعب يهتف وراءه : أطلقوا سراح القاتل .. ولم يقف الشعب الحر عند هذا الحد فقد قتل كل من لا يشجع التأميم ويعارض حركته ..

ولا تسأل عن موقف العلماء فى إيران . . فقد برهنوا على رجولة لا تقف عند حد ، رفضوا أن يرثوا رئيس الوزارة (لأنه خائن لوطنه) وكفاهم بهذا فخراً . . والشعب الإيرانى الحر استطاع أن يدخل البرلمان أعضاء أحرارا يمثلونه .

استطاعوا أن يفرضوا على الشاه زعيما وطنياً يمسك بدفة البلاد .

ولم يستطع الشاه لماله من سلطة أن يفرض عليهم زعيما من عنده .

ويجب أن تقدر اعتباراً لا بدمنه ، وهو أن الشاه هذا ... هو الذى وزع أملاكه على شعبه بعد أن تنازل عنها . . ولو لم يكن هذا الاعتبار لكان له شأن وأى شأن . . وبعد هذا لا تسأل لم بقى الشعب الإيرانى صائناً كرامته وكرامة بلاده . . .

وليس لك أن تسأل لم لم يستطع الشعب المصرى والعراقى والأردنى مثلا ما استطاعه الشعب الإيرانى ؟

فهناك فرق كبير بين شعب حر كالشعب الإيرانى يأبى إلاَ أن يصان وضعه ، ويحترم كيانه ، وبين الشعوب الأخرى ، التى لاهم لها فى الحياة إلا أن تأكل لتعيش ، إن هذه الشعوب ليست جديرة بالحياة ، وكأنها تعيش عالة على حكوماتها ، وكأن حكوماتها هى أرباب نعمتها ، ولو أدركت أنها صاحبة البلاد ، وأن الحكومات موظفة لديها لما وصلت إلى هذه الحال المؤسفة . .

إن الموظفين مثلا وهم من طبقات الشعب المثقفة محرم عليهم أن يتحدثوا فى شئون بلادهم لأنها سياسة ، ولا دخل لهم فى السياسة ، والموظفون مضطرون إلى الإذعان لأن مرتباتهم التى يتقاضونها من خزانة الدولة كأنها ليست مقابل عملهم المتعب الشاق ، ولكنها تعتبر بمثابة رشوة لإخضاعهم واستعبادهم

وبقية الشعب مضطرون إلى الالتجاء إلى الأحزاب السياسية حتى إذا ما واتتها الأيام فجلست على كراسى الحكم ـ استطاعوا أن ينتفعوا منها

وقد يخرج عن هذين الصنفين طبقة تحترق من أجل أوطانها ، ولكن هيهات أن تستتب لها حال ـ فإن اضطهاد الحكومات الهزيلة لها . . لا تهب لها شيئاً من الهدوء والاطمئنان . . !

٣ — ضمان جماعى

الدعامة الثالثة من الدعائم الأربع التى تقوم عليها الدولة الإسلامية ، هى ضمان جماعى يربط الشعوب الإسلامية على اختلاف ألسنتها وألوانها وأقطارها برباط متين من الأخوة الإسلامية الصادقة ، والإسلام يعتبر الضمان الجماعى أصلا من أصول دولته لا تستقيم إلا به ، وليس وليد مشروع تبرزه إلى حيز الوجود تفكيرات الساسة الملوثة بالعقم والتخاذل ، فيخرج شبحاً لا روح فيه .

بل إن الإسلام ليعتبره جزءاً من عقيدة المسلم ، فكما أن عقيدته تشمل الإيمان بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر . فهى أيضا تشمل الإيمان بالأخوة الإسلامية ، وبأن العمل على تحقيقها فرض على كل مسلم ومسلمة ، وما الأمة الإسلامية إلا أشبه بالجسد الواحد تكونه أعضاء متعددة تتعاون على صون حياته وحفظ كيانه . .

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا — إنما المؤمنون إخوة »

ولقد كانت الجنسية الإسلامية فى العصر الأول الإسلامى ، تمنح لكل من يدخل فى الاسلام ، ويصير بذلك فرداً تابعا للدولة الإسلامية له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وبذلك امتزجت أرواح المسلمين فى مختلف البقاع بالعنصرية الإسلامية. وصاروا جديرين بما بلغوه من سؤدد ومجد .

وتعرضت الدولة الاسلامية إلى التمزيق دويلات بأنانية بعض المنتمين إلى الإسلام زوراً . ونبتت شجرة القوميات الخبيثة ، وتلاشت الروح الإسلامية القوية ، وأصبح الوطن الإسلامى أوطاناً يدعو لكل منها سكانه فحسب ، ومرت ظروف شوهد المسلمون يضرب بعضهم رقاب بعض باسم القومية والوطن .

وليت المأساة وقفت عند حد تمزيق الدولة الإسلامية إلى دويلات ، ولكنها وصلت إلى حد تمزيق الدويلة الواحدة إلى أحزاب لا تكاد تتفق حتى تختلف ، وكأنه قدر لها دوام الاختلاف الذى أصبح طبيعة من طبائعها الأصيلة ، وليس لهذه الأحزاب فى كل دويلة من هدف سوى تمزيق الشعب ليسهل على المتحكمين « وهم من متزعمى الأحزاب غالبا » استعباد الشعب وإهانته ، وإلزامه الهدوء والاستكانة .

وهذه الأحزاب عادة تتكون من ذوى العصبيات فى البلاد . وشهوة الاستبداد فى العصبيات أصيلة . وحين تدفع الأسرة ذات العصبية بزعيم إلى حيز الوجود ، تجرى فى عروقه شهوة التحكم ، فيكون جل همه أن يتحكم ويكون من خطل الرأى أن تنتظر الشعوب من زعمائها المصطنعين خيراً لبلادها المغصوبة ، والمستعمر الغاصب يستغل شهوة التحكم فى الزعماء التى هى أسمى غاياتهم ، فتداعبهم بمناصب الحكم وكراسيه مداعبة الحاوى البارع للاطفال اللهاة ، والصغار الهبالى المدللين .

إن الذى لا ريب فيه أن البلاد الاسلامية جميعاً لم تكن بعد ملكاً للمسلمين ، وإنما هى ملك لدول كافرة رأت أن المسلمين لم يعودوا أهلا لأن يملكوا بلادهم . ومن الخير لهم ولبلادهم أن يظلوا آلات صماء تعمل ، وأنعاما حسبها من الحياة أن تأكل وتشرب ، وألفاظ القاموس الاستعمارى — كالوصاية وغيرها — لأكبر دليل .

وحجة المستعمرين أن الشعوب الإسلامية — التى تربعت من قبل فوق هامة المجد — لم تبلغ بعد نضجها السياسى ، ولا بد من أن تمكث قرونا حتى يؤول أمرها إليها ، وفرض الوصاية عليها من قبيل الرحمة بها .

شعوب المغرب العربى وجنوبى أفريقيا وأريتريا وليبيا والسودان وغيرها وبعض المقاطعات الإسلامية — لا تزال فى دور الوصاية ، ومصر والشام

والعراق والأردن وغيرها فى دور الوصاية — ولـكنها وصاية من نوع أرقى ، ويمكن أن نعبر عنها بأنها تحت الإشراف الذى يخفى تحت جناحيه الفرض والإملاء . .

والذى لا ريب فيه أيضا أن البلاد الإسلامية فى حاجة إلى الانتقال من دور الوصاية أو الإشراف . والسياسة التى عليها لا يمكن أن تحركها إلى الأمام خطوة واحدة ، والاعتماد على زعمائها لا يمكن أن يزحزحها عن حظائر العبيد قدما واحدا — وإعادة الحياة إلى الضمان الجماعى الاسلامى هى وحدها الـكفيلة بتحرير البلاد المسلمة وشعوبها .

إن القوة وحدها هى التى تحقق كل شىء ، ولا يمكن للقوة أن تكون بدون تضامن ، بشرط أن يكون ضمان جماعى لا يتخلف عنه مسلم واحد فضلا عن دولة بأكملها .

ولو أمكن إيجاد جنسية إسلامية يتجنس بها كل مسلم لـكان أكمل ، ولندع حماقة الأغبياء الذين يتهموننا بالتعصب تذهب أدراج الرياح ، فلقد ظهر منذ عهد قريب مواطن عالمى من قلب أمريكا ، ودعى إلى مذهبه ولقى ترحيبا فى معظم الممالك الـكبيرة المستعمرة ، ونحن حين ندعو إلى إيجاد الجنسية الإسلامية فإنما ندعو إلى حقيقة يرحب بها الإسلام لأنها أحد أهدافه .

وبدل أن ينقسم زعماء المسلمين بسبب الاتجاه إلى إحدى الـكتلتين : الديمقراطية والشيوعية — يجب أن نتجه إلى إيجاد كتلة إسلامية اعتزازاً بديننا وبأنفسنا .

«يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةمن دونـكم لا يألونـكم خبالا ، ودوا ماعنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لـكم الآيات إن كنتم تعقلون » . (آل عمران ١١٨) .

«يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين» . (آل عمران ١٤٩)

«بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة ، فإن العزة لله جميعا» .

(النساء ١٣٨ ، ١٣٩)

«يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا» . (النساء ١٤٤)

وبهذه الكتلة الإسلامية يمكننا أن نحل مشكلاتنا بأيدينا بدل أن نتسول أمام أبواب الهيئات الدولية الجائرة ، ونضيع الأوقات دون أن نحل مشكلة واحدة.

***

ويجب أن ننبذ — نحن الشعوب المسلمة — المشروعات التى يوحى بها المستعمر لإلهائنا — ولعل فى مشروع الجامعة العربية عظة وعبرة لنا ، فلقد استغلها المستعمر مطية ذلولا ، وبعد أن أدت واجبها ، حملته النذالة على تحطيم كيانها وكرامتها فقذف بها إلى معمعة فلسطين أمام شرذمة من أوغاد الخلق ، لتكون أضحوكة أبد الدهر . وقد تم له ما أراد .

ونرى المستعمر الآن يبادر بابتكار مشروع جديد بعد أن لاحظ الشعوب قد مجت الجامعة العربية ، والمشروع الجديد هو الضمان الجماعى ينضوى تحت لوائه الدول العربية وحدها ، وكل ما فعله المستعمر أنه غير لفظاً بلفظ والمعنى واحد فى الحالين .

والدفاع المشترك الذى يجد المستعمر صعوبة فى تقريرة ، يذلل صعوبته الضمان الجماعى المزعوم ، والمستعمر يهدف دائماً إلى جمع الدول العربية فى منطقة الخطر على مائدة واحدة توفيرا للوقت ، وزعماء هـــذه الدول

لا يفكرون أبداً فى أن يستغلوا هذا المشروع لتحرير بلادهم ، وإنما جل همهم أن يتسلوا ليثبتوا أنهم أحياء على ظهر الأرض .

إنه لمن البله والحمق أن تترك الشعوب المسلمة قضاياها أمانة فى أعناق زعماء لم يثبتوا بعد أنهم جديرون بحملها ، ومن الخير لها أن تتولى بنفسها رعاية قضاياها ، ولعل فى الباكستان أملا كبيرا فى تحقيق مشروع الضمان الجماعى الإسلامى — لا الأمريكى الإنجليزى العربى — وبهذا تستطيع الشعوب المسلمة المبعثرة المهينة أن تتنفس فى جو من العزة والحرية والكرامة.

٤ — ضمان اجتماعى

الدعامة الرابعة من دعائم الدولة الإسلامية هى الضمان الاجتماعى ، ومادامت فلسفة الإسلام قد اعتبرت الأمة الإسلامية أشبه بالجسد الواحد ، إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهد والحمى ، فقد أصبح من المحتم أن يكون الضمان الاجتماعى لجميع أفراد الأمة من ألزم اللوازم لهم .

والضمان الاجتماعى قاعدة تقتضيها طبيعة الحياة التى لا ينكرها الإسلام ، ولقد مهد الإسلام للضمان الاجتماعى الشامل الذى يشمل الأمة فى مجموعها ، بضمان مصغر ، لا يتعدى حدود البيت والأسرة ، ألا يلزم الرجل النفقة على زوجه وأولاده ، وعلى أبويه وإخوته إن كانوا فقراء ؟

أما الضمان الأكبر فتنفيذه وتحقيقه يلزمان حكومة الدولة ، وتهاونها مما يسبب الاضطراب الذى لا تحمد عقباه .

ولا يعتقد أن الإسلام يعتمد على الزكاة فى تحقيق الضمان الاجتماعى ، فهو يعتمد على كل موارد المال ، وقد كان عمر بن الخطاب يأتيه عماله بأموال لا حصر لها ، فلا يستقر لها قرار ، حتى يوزعها على جماعة المسلمين .

والإسلام قد خول للامام حق الاجتهاد ، فإذا رأى أن موارد المال لاتفى بسد حاجة الضمان ، فلامانع من أن يفرض ضريبة على طبقة الأثرياء ليحفظ كيان الأمة ، وقد عزم عمر فى أواخر أيامه على أن يأخذ فضول أموال الأغنياء ليوزعها على الفقراء — أليس الإمام والأمة مسئولين أمام الله والضمير الإنسانى عن الفقير لومات جوعاً ، وإذا جاز للفقير أن يصد غائلة الجوع بالسرقة ، أفلا يجوز للحاكم إرغام الأغنياء على إشباع بطون الفقراء ، وهم لاشك متضامنون مع وحدة الأمة ؟ .

نظرية الإسلام ألا يبيت فرد جائعاً ، وألا يعيش عريانا أو مشرداً ، والأمة يجب أن تتكفل له بالعيشة الكريمة ، ولذلك لايقر نظام الطبقات ، كأن تكون الأمة طبقتين : طبقة مترفة تتربع فوق هامة الثراء ، ولا هم لها إلا البذخ والترف ، وطبقة متربة معدمة تصارع عواصف العرى والجوع ، وتتجرع كئوس الألم والشقاء .

إن رسول الله حرص على أن يكون هناك توازن بين طبقات المسلمين ، وفى غزوة بنى النضير حيث أفاء الله عليه ، أعطى الفيء كله للمهاجرين ورجلين من الأنصار لحاجتهما الماسة إلى المال ، وذلك لأن المهاجرين تركوا ديارهم وأموالهم فى سبيل الله ، والأنصار لم يكونوا فى حاجة إلى المال لثرائهم ، فكان من الحكمة أن يوجد الرسول هذا التوازن ، حتى لايظل المهاجرون عالة يتكففون الأنصار . فتهدم نفوسهم وتتحطم قلوبهم .

ولهذا الغرض لايقر الإسلام تكدس الأموال فى خزائن طبقة من الناس ، فتشل حركة الأمة ويختل توازنها ، ولقد توعدهم وهددهم بأقصى العقوبة .

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباهم وجنوبهم

وظهورهم ، هـــذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » .
(التوبة ٣٤ — ٥٣)

والإسلام لايحرض الشعب على التعطل ارتكانا على الضمان الاجتماعى ، وإنما يدفعه إلى العمل الذى يصون له ماء وجهه ، وما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، واعتبر أن هناك ذنوباً لا يكفرها الصوم ولا الصلاة ، وإنما يكفرها الهم فى طلب المعيشة ، واعتبر الساعى على والديه وأولاده مجاهداً فى سبيل الله ، أما من عجز حقيقة عن العمل ، فالدولة الإسلامية متكفلة به ، وضامنة لعيشه ، ولو كان من أحد رعاياها ، لأن إنسانية الإسلام لاترتبط بالأديان ولا بالأجناس ، وقد آلم عمر بن الخطاب أن يرى يهودياً هرماً يتسول ، وأمر له بما يكفل له معيشته من بيت المال ، وقد هاله أن تجبر امرأة رضيعها على الفطام لأنه لايفرض للرضيع من أموال الدولة ، فأمر بأن ينادى فى المدينة ، بأنه سيفرض للرضيع ، ولطم على وجهه قائلا : ويل لعمر كم أهلك من أطفال المسلمين . !

والضمان الاجتماعى فى الإسلام يضمن العيش لكل عاجز عن أن يعيش ، وولاة الأمور يعملون على هذا لا بدافع من العاطفة والرحمة ، وإنما بدافع من العدالة الاجتماعية التى يقررها الإسلام ، ويحتم على ولاة الأمور تحقيقها .

ولو أننا ألقينا نظرة إلى مشروع الضمان الاجتماعى فى مصر ، والذى تثرثر وزارة الشئون له ، لألفيناه خالياً من روح العدالة الاجتماعية ، فلم يقم على أنه ضمان اجتماعى بالمعنى الصحيح ، لأنه منحة تمنح بعض العجزة ، وهى منحة لاتحقق جزءاً من الضمان الاجتماعى .

فقيمة المعاش لأسرة كاملة جنيهان ونصف فى المدن ، ومائة وثمانون قرشا بالريف ، ولو أن هذه المنحة تشمل الجميع على السواء لكانت خيراً

أو بعض الخير ، ولـكنها تشمل أقاليم وتهمل أخرى ، وتوهب لأناس ويحرمها آخرون ، والأسبقية لمن له وساطة من حزبيـة أو محسوبية أو ما إلى ذلك .

والغريب أن دولة كمصر تستطيع أن تـكون دولة لها قدرها ولشعبها كرامته ، ولوأنها فـكرت تفكيراً سليما لجعلها فى غنى عن أن تـكون دولة للصدقات ، فهى ينقصها كثير من المشروعات الحيوية التى تنهض بها ، وتستطيع بهذه الأموال التى توزعها على سبيل الصدقات أن تحقق هـذه المشروعات ، فتفتح سبيل العمل للذين لايجدون عملا .

فى استطاعتهـا أن توزع الأراضى البور على الفلاحين المـكدودين ليعملوا على إصلاحها والانتفاع بها ، وتعينهم على ذلك جهد الاستطاعة ، بدل أن توزعها على كبار الملاك ، لتتخم ثرواتهم وتسخر فى إصلاحها الملايين من الجياع ، وتبذل فيها دماءها وعرقها ثم لاينالون منها شيئاً ، وينتفع بخيراتها أولئك الذين ليسوا فى حاجة إليها .

ووزارة الأوقاف تملك كثيراً الاقطاعيات ، ولـكنها تؤجرها لمن لهم الغلبة من ذوى المحسوبيات بأجر زهيد ، ليؤجروها إلى الفلاحين المعدمين بأضعاف مضاعفة .

وكثير من ذوى رءوس الأموال يكدسون فى خزانات البنوك أموالا طائلة جمدت فى مكانها ، فلم لاتفرض الحـكومة قانوناً يحتم عليهم تشغيلها لتعمل على نهضة صناعاتنا واقتصادياتنا ؟ وماذا تم فى مثل مشروع خزان أسوان بمصر ؟ لم يتم شىء ، وغيره من المشروعات الحيوية التى لاتحركها إلا النفوس النزيهة ، والأكف النظيفة ومن أين لنا بها .

إن الرسول حين رأى مسلماً عاطلا عن العمل سأله ألا يملك شيئاً ؟

قال : لا اللهم إلاحصيرة فأمره أن يأتى بها ، وعرضها فى مزاد عام ، وسلمه ثمنها ، وأمره أن يشترى فأساً وحبلا ، ويذهب ليحتطب ، وذلك خير له من أن يسأل الناس أعطوه أومنعوه .

ولـكنا فى مصر والشرق الإسلامى ، ندفع بالشعب ليـكون عالة يتكفف وزارة الشئون والأوقاف ، ولانفكر له فى حياة يتسع فيها ميدان العمل .. ليعمل شريفا مرفوع الرأس مصون الـكرامة .

***

إن المشروعات الحية وحدها هى التى تنهض بمستوى الشعوب الشرقية الـكادحة . وما أكثر فى الشرق المنكوب وليس معنى الضمان الاجتماعى أن ينال العجزة صدقات تقربها أعينهم فحسب — ولـكن يجب أن يشمل العاطلين فيوجد لهم العمل الذى يهب لهم الحياة الـكريمة .

والحلقة المفقودة فى الموضوع ، والتى بسببها ستظل الشعوب الشرقية يصهرها الشقاء ، هى أن طبقة الحاكمين طبقة أنانية متحجرة ، لا تشعر بشعور الشعوب ، ولا تمتزج أحاسيسها بآلامها ، تود أن تعيش وحدها مترفة منعمة فلا تبالى بأوجاع الشعوب ولا بزفراتها ، ويهون عليها أن تئد المشروعات الحية بثمن بخس ، ولا ضير عليها أن تموت الشعوب المنكوبة جوعاً ، أو يلقى بها فى واد سحيق . . . ! !

مصحف

« إِنَّ هـٰذَا الْقُرْآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيراً » .

« قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُـدًى وَشِـفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ، وَهُـوَ عَلَـيْهِمْ عَمًى ، أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَـكَانٍ بَعِيدٍ » .

إن القرآن الكريم يختلف اختلافا كبيراً عن بقية الكتب السماوية ، فقد اشتملت التوراة على قصص وأخبار بنى إسرائيل ، كما استوعب الزبور عدة أناشيد ، والإنجيل عدة مواعظ ونصائح ، وقد جاء القرآن الكريم ، فاحتوى على القصص والعبر والمواعظ ، وزاد عليها الهداية والمناهج والقوانين ، فجاء دستوراً جامعاً شاملا خالداً ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ولقد اقتضت طبيعة رسالة الإسلام أنه يجىء القرآن دستوراً شاملا غنيا بكل ما يسعد دولة خالدة ستظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لأنه ركن من أركان هذه الدولة ، لا يستقر لها قرار ، ولا يطمئن لها وضع بدونه .

هداية

ولا ريب أن مهمة القرآن الأولى هى الهداية : هداية البشرية قاطبة إلى إلى العقائد السليمة الصحيحة التى تتفق والعقول الرشيدة ، وتحريرها من عبادة الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى من الحق شيئاً ، وعبادة البشر الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

وإلى مهمته الأولى يشير فى عدة مواضع منها :

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » (البقرة ٢)

« فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه ، وهدى وبشرى للمؤمنين . (البقرة ٩٧)

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » (البقرة ١٨٥)

« قل نزله روح القدس من ربك بالحق ، ليثبت الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين » (النحل ١٠٢)

« أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة » (الأنعام ١٥٧)

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » . (الإسراء ٩)

« يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين » (يونس ٥٧)

« تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين »

(النمل ١ ، ٢)

وموقف القرآن فى هذه المهمة (مهمة الهداية) من البشرية قاطبة هدايتها إلى العقائد السليمة ، وإلى هذا يشير أيضاً فى عدة مواضع منها :

« وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه ، بل له مافى السموات والأرض كل له قانتون — بديع السموات والأرض ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » (البقرة ١١٦، ١١٧)

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ، وقال المسيح : يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وماللظالمين من أنصار » (المائدة ٧٢)

« ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء قدير » (الأنعام ١٠٢)

« ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولاينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون » (يونس ١٨)

« ومن أضل ممن يدعو من دون الله مالا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين » (الأحقاف ٥ ، ٦)

« إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين — ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون — إن ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين — والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون — وإن تدعوهم إلى الهدى لايسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون » (الأعراف ١٩٤ — ١٩٨)

أما موقفه فى مهمته من حيث أتباعه من المسلمين الموحدين فله هدفان : هدايتهم إلى أسمى الأخلاق ليتمسكوا بأهدابها ، وهدايتهم إلى أصلح القوانين التى تصلح بها حياتهم .

تربية

وحين يهديهم إلى الأخلاق السامية ، فإنما يهدف إلى الإشراف على تربيتهم التربية التى ترفع من أقدارهم ، وتسمو بأرواحهم . وتعلو بنفوسهم . وحين يستعرض لهم نماذج من الأخلاق الرفيعة الحية ، فإنما يدعوهم إلى التخلق بها ، والامتزاج بروحها .

ومما لاريب فيه أن القرآن جمع فأوعى من الصور الأخلاقية العالية ، ولم يدع كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها واستوعبها ، والذى لاريب فيه أيضا أن هذه الصور الأخلاقية قد بلغت الكمال ، وما أعمق فلسفة أم المؤمنين عائشة حين سئلت عن أخلاق رسول الله فقالت : كان خلقه القرآن .

***

اهتم بتربية الأمة الإسلامية على الأخوة المؤسسة على الاتحاد والتعاون والصفاء والإيثار :

« إنما المؤمنون أخوة ، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »
(الحجرات ١٠)

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا .. » (آل عمران ١٠٣)

« وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان »
(المائدة ٢)

وبتربيتها على فعل الخير :

« ولكل وجهة موليها ، فاستبقوا الخيرات » . (البقرة ١٤٨)

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » .
(البينة ٧)

« لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما » .
(النساء ١١٤)

وبتربيتها على العزة ، والترفع عن مواطأة العدو :

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . (المنافقون ٨)

« يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم ، وماتخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . (آل عمران ١١٨)

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير » . (آل العمران ٢٨)

وبتربيتها على آداب السلوك :

« يأيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا ، وقولوا انظرنا واسمعوا » .
(البقرة ١٠٤)

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ، إن الله كان على كل شىء حسيبا » . (النساء ٨٦)

« يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم ، حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها » . (النور ٢٧)

يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ، وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير (المجادلة ١١)

وبتربيتها على الصدق ، والاستقامة والأمانة والعدل ، والصبر .

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » (التوبة ١١٩)

«إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون» (الاحقاف ١٣)

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . . . (النساء ٨٥)

« يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم ترحمون » . (آل عمران ٢٠٠)

ولكمال التربية حرص القرآن على تحذير أتباعه مساوىء الأخلاق من خسة وغدر وجبن وضعف ، ونذالة ومروق ، وكذب ونفاق وفجور وغير ذلك ، كما حذرها الطبائع الشاذة من ظلم وبغى وعدوان واستبداد .

قانونه

أما الهدف الآخر ، فهو هداية أتباعه إلى القوانين الحية التى تسعد بها حياتهم ، وترقى بها دنياهم ، ولسنا بحاجة إلى دليل على حاجة كل أمة إلى قوانين تنظم حياتها فى مختلف الشئون ، ولسنا فى حاجة أيضا إلى دليل على أن البشر مهما أوتوا من رجاحة العقل ، ونضرة الفكر فهم يخطئون

ويصيبون ، وأن أساطين القوانين لم يعدموا نقادين لما وضعوا من قوانين .

والإسلام الذى منح العقيدة السليمة ، منح أيضا القوانين الصالحة لخير البشرية ، وهذه القوانين يجب أن تظل إلى انتهاء الدنيا لا تتغير ولا تتبدل ، لأن واضعها هو الخالق جل وعلا ، وهو المنزه عن النقص والتجريح ، وقد روعى فيها أن تصلح لكل زمان ومكان ، لأنها ستنظم شئون أمة هى آخر الأمم .

والذين رضى الله لهم الإسلام دينا يحتم عليهم أن يلتزموا قانون السماء ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإلا كانوا كمن يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، والذى يثير الدهشة أن الدول المسلمة لفظا ، والتى نبذت قانون السماء ، لا زالت مكابرة ، تدعى أنها دول إسلامية تفخر بالإسلام وتعتز به ، وهى لم تكن من الإسلام فى قليل أو كثير . .

والذى يدعو إلى الأسف والألم ؛ أن بعض المتنطعين من رجالات الدول يفزعهم دائما أن يتحدث المسلمون عن قانون السماء ، أو يفكروا فى المطالبة بحكمه ، وخلال محنة الإخوان المسلمين بمصر عام ٩٤٨ — ٩٥٠ فكرت ثلة من الأخوات المسلمات أن يلجأن إلى بعض الشخصيات لإيقاف حركة الإرهاب التى شنتها حكومة السعديين وقتئذ على جماعة الإخوان ، وكان عجيبا حين قابلهن وزير مصرى سابق بأسلوب استنكارى لمحاولة الإخوان المطالبة بحكم القرآن ؟ وقال لهن : إننا وآباؤنا منذ خرجنا إلى الدنيا ونحن نحكم بهذا القانون الرومانى الفرنسى ، ويجىء الإخوان ليغيروا شيئا لا زمنا عشرات الأعوام . .

ولو كان هذا الوزير الأحمق يستمتع بشىء من العقل السليم لما قال ، ما قال — وإذا جازله أن يستنكر تغيير الاخوان قانونا لبث عشرات السنين فقدوجب على الاخوان أن يستنكروا تغيير الأجنبى مستغلا ضعف المسلمين قانون السماء وقد لبث آلاف السنين . . !

ولهؤلاء المتنطعين ضجة خرساء ، فهم يخشون أن يثير حكم القرآن تدخل الأجنبى دفاعا عن الأقليات من غير المسلمين فى الدول المسلمة ، وعجيب هذا ، فهذه الأقليات إما تكون من أصل البلد الذى تقطنه ، فأفرادها مواطنون يسرى عليهم ما يسرى على غيرهم ، وإما أن تكون من الأجانب ، فيجب أن يخضعوا لقانون البلد الذى يقيمون فيه .

وللمسلمين أقليات فى كثير من البلاد الأجنبية ، فهل سمعنا أن دولة واحدة راعت فى تشريعها أقلياتنا ؟ بل على العكس ، إن معظم البلاد الأجنبية المسيحية تعامل أقلياتنا المسلمة معاملة غير كريمة ، تسموعنها الرجولة والشهامة . .

وقد يقول قائل : إن هناك اتفاقات دولية وتطورات فى القوانين ، وقد يكون التشريع القرآنى عقبة تحول دون مسايرة الدول الراقية فى تطورات الحياة .

ونحن نقول لهؤلاء : إن رفعه المسلمين رهينة باعتزازهم بتراثهم ، ولا نظن أن الاسلام يقف مكتوف اليدين أمام أى تطور ، لا سيما وأنه يرحب بوحدة العالم فى خدمة الانسانية والبشرية ، وبهذا نادى القرآن الكريم .

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . . . » (الحجرات ١٣)

نعم إننا نحكم بجانب من التشريع ، وهو الذى يتعلق بأحوالنا الشخصية ، من النكاح والطلاق والميراث وما إلى ذلك . وتختص بذلك كله المحاكم الشرعية ، ولكنا نقول : إن الإسلام لا يرضى لأتباعه أن ينفذوا بعضا من التشريع ويهملوا البعض الآخر .

إن الإسلام يعتز بتراثه كل الاعتزاز ، ولذلك يشدد النكير على المتهاونين فى حكمه ، وينعتهم بالكفر والظلم والفسوق :

وقد حذر القرآن الرسول أن يتهاون فى حكم الله ، وأن يخضع لأهواء المغرضين الذين لا يسرهم أن يكون لحكم الله الكلمة العليا :

« وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق .. » (المائدة ٤٨) .

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنه أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيراً من الناس لفاسقون — أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » (المائدة ٤٩ — ٥٠)

***

إن القانون السماوى استوعب كليات وأصولا ، واعتمد على اجتهاد الحاكم أو القاضى فى الفروع ، والجزء المنفذ الآن منه فى البلاد الإسلامية والذى يتعلق بالأحوال الشخصية لا يحتاج إلى كثير من الاجتهاد ، لأن القرآن والسنة فصلاه تفصيلا ووضحاه توضيحا .

وترى ذلك ملموساً فى مسائل : الميراث والوصية وما إليهما والنكاح والطلاق وما يتعلق بهما

أما الجزء المعطل منه ، وهو إقامة الحدود والأنظمة وغيرهما ، فهو الذى يحتاج فى كثير من الأحايين إلى اجتهاد المجتهدين من أئمة وقضاة .
وأعتقد أن إقامة الحدود هى التى تثير ثائرة الجهلة المتنطعين من أبناء المسلمين ، والغريب أن عبارة قصيرة أوردها القرآن فيها كل الإقناع ، لو كانوا يفقهون، وهى قوله تعالى :

« ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » (البقرة ١٧٩)

أى أن فى القصاص صيانة لحياة الأمة من فوضى المستخفين ، ومجون

الطائشين ، وفيه استتباب الأمن واستقرار الحال بينكم .

يفزع الحماقى من المسلمين أن يقام حد السرقة وهو قطع يد السارق ، ويعتبرون أن إقامة هذا الحد ضرب من الوحشية والهمجية ، ولسنا ندرى أتلصق الوحشية والهمجية بذلك القاتل الذى يستخف بأموال الناس ودمائهم ، أم بالإسلام الذى يريد أن يصون أموال الناس ودماءهم .

على أن الأسلام يعتمد فى إقامة حد السرقة على تحليل نفسية السارق ، فإن كان الذى دفعه إلى السرقة الجوع والفقر مثلا ، فلا يرى قطع يده ويعامله معاملة المضطر ، على قاعدة قوله تعالى :

« فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ، إن الله غفور رحيم » .

(البقرة ١٧٣)

وإن كان الذى دفعه إلى السرقة شهوة البغى والعدوان ، والاستخفاف بأرواح الناس ودمائهم ، فلا بد من أن ينال جزاءه ، ومهما بلغت العقوبة ففيها توفير الأمن للناس ، ولسنا ندرى كيف نضن على المجتمع بأكمله وفى سبيل راحته ببضع أيد تأبى إلا أن تمتص أمنه ، وتثير الإرهاب بين أرجائه ، ولا شك أن قطع هذه الأيدى يعتبر بمثابة جزاء لها بسبب بغيها وعدوانها ، وبمثابة عبرة وعظة للذين تحدثهم أنفسهم بالاستخفاف بأموال الناس ، وإلى هذا يشير القرآن بقوله :

« السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم » (المائدة ٣٨)

والإسلام يهدف من إقامة حد الزنا إلى صيانة الأعراض ، ويحول دون الاستخفاف بانهيارها ، والذين يسخرون من الإسلام لحرصه على الأعراض من أن تهتك ، وعلى الأنساب من أن تضيع ، حين يقيم الحد على الزانية والزانى ، لا يقيمون للأعراض ولا للأنساب

وزنا ، وأحرى بهم أن يعيشوا فى محيط أقل مستوى من محيط الحيوان ، لأن الحيوان كثيراً ما تدب فيه الغيرة والشهامة . !

وقد اشترط الإسلام فى إقامة الحد الإقرار أو البينة ، واشترط فى البينة أن يكونوا أربعة شهداء مسلمين عدولا ، يرون ارتكاب الفاحشة رأى العين ، وفى هـذا دليل على أن الإسـلام يقصد عقاب الماجن المستهين بالأعراض بدرجة الطيش والاستخفاف .

والإسلام لا يقيم الحد إلا على القاتل المستخف بالأنفس والأرواح — والذين يتهمون الإسلام بالوحشية لأنه يقتل الباغى المستخف بالأرواح ، هم أجدر بأن يتهموا فى عقولهم ، ففى قتل الباغى راحة للجميع من شره ، ومن يدرى ، فربما كان فى إخلاء سبيله تعد وبغى على أرواح كثيرة ، وكاد يكون من الحمق أن نحرص على حيـاة فرد واحد فى سبيل إزهاق أرواح جماعة .

وكما يهتم الإسلام بصيانته الأعراض من أن تهتك ، فإنه يهتم بصيانتها من أن تمس بسوء أو يطعن فيها ، ولأن الطعن فيها يعتبر طعنا فى شرف الأسرة ، يخدش كرامتها ، ولم يكن الإسلام متجنياً على القاذف فى أعراض الناس حين جعل جزاءه الجلد ثمانين جلدة ، وحين أمر بحذفه من المجتمع الإنسانى بعدم قبول شهادته ، وتسـجيل الفسق عليه ، حتى يكون عظة لأولئك الذين يلغون فى الأعراض غير مبالين أو مكترثين .

« والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون (النور ٤)

وشارب الخمر إنما يخرج بنفسه عن المجتمع الإنسانى ليظل ساعات حيوانا لا عقل فيه ، ويخشى منه وقوع الشرور لأنه فاقد الاحساس ، والإسلام حين يقيم عليه الحد بالجلد ثمانين أو أربعين جلدة ، إنما ليحول

دون وقوع هذه الشرور . ولأنه راضى لنفسه أن يكون سفيها ، والسفيه هو الذى لا يحسن التصرف . وليس هناك أشد سفاهة من هذا الذى لا يحسن التصرف فى أسمى نعمة وهى العقل .

***

وضح لنا أن الإسلام حين يقيم الحد إنما يهدف إلى القضاء على استخفاف الأشرار الذى قد يطبع بكيان المجتمع ، ويهب له قسطا وافراً من الاضطراب ، ولا يمكن أن يكون فى إقامته الحدود رغبة التشفى ، لأن هداية فرد واستقامته خير لديه من إقامة عشرة حدود ، وتراه حتى فى آيات الحدود يهتم بالتربية النفسية ويعول عليها ، ويعتبر الاستقامة بعد الإجرام هى خير مكفر .

فبعد أن ذكر القرآن جزاء السارق والسارقة عقب بقوله .

« فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ، فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم . (النور ٥)

***

والذى لا مرية فيه أن التهاون فى إقامة الحدود أضحى السبب فى تثبيت دعائم الفوضى ، فقد تدفع الحمية المسروق إلى قتل السارق ، وصاحب العرض إلى قتل الزانى والزانية . وإلى قتل القاذف فيه ، وصاحب الدم إلى قتل القاتل وغيره من ذوى عصبيته ، فتشتعل الحرب بين الأسرتين . وقد تزهق أرواح لا أعداد لها ، وقد يحدث من شارب الخمر ما يستوجب قتله دون أن يشعر . وهكذا ، ولو أننا ارتضينا حكم الله ، لما وجدت الفوضى بين بلادنا مرتعاً خصباً لها ، ولكن من أين لنا إقناع أولئك الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة . أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون .!

سيف

«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ، وَآخَرِينَ
مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ
شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ»

القوة أهم الأركان فى بناء الأمة ، والإسلام الذى أراد لأمته أن تكون خير أمة أخرجت للناس لم يفته العناية بهذا الركن ، وكيف لا يعنى به وهو سياج دولته وحصنها .

وليست القوة للأمم بمثابة رمز فحسب ، ولكنها لتؤدى واجبها وقت الحاجة . . . عند ما تدعو إلى الجهاد والنضال

ولم يكن الجهاد بدعة ابتدعها الإسلام فقد سبقته الشرائع إليه ، وقد جاهد موسى عليه السلام جهاداً طويلا كما يقص القرآن الكريم علينا :

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين — ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . (المائدة ٢٠،٢١)

وقد استمر الجهاد من بعد موسى كما يشير القرآن إلى ذلك .

« ألم تر إلى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله . قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ، قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين » .
(البقرة ٢٤٦)

وفى قصة سليمان مع ملكة سبأ .

« فلما جاء سليمان قال أتمدوننى بمال ، فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل

أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون . (النمل ٣٦،٣٧)

* * *

لقد لبث الإسلام ثلاثة عشر عاما بين ربوع مكة ، فكانت هذه الأعوام الثلاثة عشر بمثابة تمهيد للتجمع حول الدعوة الجديدة ، وقد كان هناك نضال ، ولكنه نضال فكرى لإقناع الناس بعقيدة الإسلام — والواقع أن عنت المشركين حال كثيراً دون أن يتمكن المسلمون من القيام بهذا القسط من النضال .

وانتهز المسلمون حادث الهجرة فأعدوا أنفسهم لتكوين دويلة صغيرة ، وانتقل النضال الفكرى إلى نضال مادى ، وكتب الله عليهم الجهاد ليكون سياج الدولة وحصنها .

أهداف الجهاد

إن التهمة التى رمى بها الإسلام ، والتى لا زال بعض الحماقى من المستشرقين يرمونه بها . هى أن الإسلام انتشر بالسيف .

ولسنا ندرى أى دليل أقوى من قوله تعالى :

« لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى . » (البقرة ٢٥٦)

ولسنا ندرى أيضا ماذا كان يراد من الإسلام ؟ أكان يراد منه أن يقف مكتوف اليدين أمام أعدائه من جحافل الشرك الذين لم يألوا جهداً فى إطفاء نوره ؟

إن الإسلام لم يجىء إلا لتأسيس دولة وتكوين أمة ، وهل كان يراد من دولته أو أمته أن تؤسس أو تكون عزلاء لتعصف بها قوى البغى والاستبداد ؟ .

وهل إذا أحرزت دولة الإسلام القوة هل كان يراد منها أن تلقى السلام بمجرد الاعتداء عليها . أم تدفع عن نفسها غائلة العدوان ، والحروب ضرورة اقتضتها طبيعة العمران ، وتوازن القوى يتوقف عليه بقاء هذا العمران .

ومن يدرى ماذا يحدث لو لم تكن اليوم فى العالم قوتان : الشيوعية والديمقراطية . ولو أن إحداهما فنيت ، ولم تظهر إثر فنائها قوة تقوم مقامها ، لبغت القوة الحية ، وآلت الدنيا إلى زوال ، والعمران إلى خراب ، وما أصدق قوله تعالى :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . . » (الحج ٤٠)

والإسلام لم يستغل الجهاد إلا الاستغلال الذى يجيزه العقل وتتطلبه الحاجة الماسة ، وتفرضه ضرورة الحياة .

إن الجهاد فى الإسلام يهدف إلى غايات من أنبل الغايات وأشرفها :

الدفاع

وهو أول الأهداف ، ولم يبدأ بتشريع الجهاد فى بادىء الأمر إلا لقصد الدفاع الذى لا بغى فيه ولا عدوان ، ولا بطر ولا إسراف ، وذلك لكسر شهوة البغى فى الكفار ، رجاء أن يكفوا أيديهم عن مناهضة الدعوة الإسلامية وأتباعها.

« فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ، وحرض المؤمنين على القتال ، عسى أن يكف بأس الذين كفروا ، والله أشد بأساً وأشد تنكيلا . » (النساء ٨٤)

درء الفتنة

وأى فتنة أشد من الكفر الذى يمزق وحدة الشعوب ، ويوقع بينها العداوة والبغضاء ، ويشعل بينها الحروب التى تهلك الحرث والنسل وتأكل الأخضر واليابس :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة . . » (الأنفال ٣٩)

« يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم . . . واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . » (الأنفال ٢٤، ٢٥)

تحرير العقيدة

المعروف أن العقيدة الإسلامية بدئت بالمناورة منذ اللحظة الأولى ، وأبى المناوئون إلا مناهضتها فى أشخاص أتباعها باستعبادهم واضطهادهم ، ففرض الجهاد عليهم للتحرر من الاستضعاف ، وليمكن الله لهم دينهم الذى ارتضى لهم يعبدونه لايشركون به شيئاً :

« ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيراً » (النساء ٧٥)

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهن فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهن من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . (النور ٥٥)

تأمين الدعوة

كما كانت الدعوة فى حاجة إلى حماية ، كذلك كانت فى أمس الحاجة إلى التأمين ؛ ولم يقصد الإسلام بفتوحاته إلا تأمين الدعوة بإخضاع ماجاورها وإضعاف شوكة المناوئين لها والتربصين بها ، ولم يكن قصده استعباد الشعوب أبداً ، يدل على هذا المعاملة الطيبة التى كانت تلقاها من المسلمين تلك البلاد التى فتحوها . .

أما الجزية فلم تزد على ضريبة تافهة ، تؤخذ من المقتدر فى مقابل حمايته وتمهيد سبل الراحة له .

والمسلمون الأولون لم يكونوا فى فتوحاتهم مدفوعين بروح الغزو والسيطرة أبدا ، ففى معظم الأحيان إن لم تكن جميعها ، كان يظهر لهم بريق الخيانة فى أعين الحاقدين على الدولة الإسلامية الوليدة ، مما يدفعهم إلى استئصال الشر قبل اشتعاله .

واليهود فى حكومة الرسول كانوا دائما يدبرون المؤمرات سراً للقضاء على الدعوة ، وفى حكومة الخليفتين من بعده كان الروم والفرس يضمرون الحقد لها ، وما كان الرسول يخرج إلى المناوئين إلا بعد أن يطلعه الله على خائنة أعينهم .

« وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين » . (الأنفال ٥٨)

ضلالة انتشار الإسلام بالسيف

إن الإسلام لقوته لم يعدم فى عصر من العصور أعداء لدا يكيدون له ، وطالما أتعب هؤلاء الأعداء أنفسهم دون أن ينالوا من قدره شيئاً .

وهذه الضلالة القديمة لم يقف المسلمون أمامها مكتوفى الأيدى ، بل تصدوا لتفنيدها ودحض مفترياتها .

ولسنا ندرى ماذا كان يريد أولئك المفترون من دعوة حق لم تقم إلا على أسس من الحق ، ولم ترد للانسانية والبشرية إلا الخير ؟

* * *

أ كان يراد منها أن تظل قابعة مستسلمة لجبروت المعاندين الذين لم يألوا جهداً فى مكافحتها وإطفاء نورها ؟ أم كان يراد منها أن تلتزم الصوامع فى يثرب حيال مكائد المنافقين ومؤامرات اليهود .

إن الجهاد فى الإسلام لم يبدأ إلا بالدفاع عن النفس والعقيدة ، وأولئك الذين ينكرون على المسلمين الدفاع عن أنفسهم هم أهون من أن يناقشوا أو يسأل عن أضاليلهم . .

ولنفرض أن الإسلام قد انتشر بالسيف على حد زعمهم . . فبم انتشر فى البلاد التى لم يغزها المسلمون ولم يفكروا فى فتحها ، وقد أصبحت إسلامية لحماً ودماً . . ؟

* * *

إن أهداف الجهاد فى الإسلام تتلخص فى تحرير العقائد فحسب ، فأول هذه الأهداف الدفاع عن العقيدة ـ فلقد اعتدى المعتدون ما شاء لهم أن يعتدوا على أصحاب الدعوة الإسلامية ، ولما عيل صبرهم ، كتب عليهم القتال ، وأول آية نزلت فى الجهاد لم تكن إلا للدفاع وحده .

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير — الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ، وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز — الذين إن

مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » (الحج ٣٩ - ٤١)

وكانت أول خطوة من خطوات تشريع الجهاد فى الإسلام على سبيل الوجوب هى مقاتلة المعتدين لرد اعتدائهم .

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين — واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » . (البقرة ١٩٠ — ١٩٣)

ولست أدرى كيف لا يقنع هؤلاء المبطلون هذه الأدلة القوية من كتاب الله تعالى ، والتى تبطل زعمهم وتزهق افتراءهم ، والتى توضح أن الإسلام لم يكتب الجهاد على المسلمين ليفرضوا عقيدتهم على الناس فرضا ، وإنما لحمايتها ورد عدوان المعتدين عليها ، وهذه الأدلة ليست فى حاجة إلى بحث أو شرح — وفيها أقوى برهان على عدالة هذا الدين : « لا إكراه فى الدين — وإن جنحوا للسلم فاجنح لها — فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم — أفأنت تكره الناس حتى أن يكونوا مؤمنين — فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم ، وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا — فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ، ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبينا — وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

والشريعة الإسلامية الغراء لا تجيز فى حربها قتل النساء والصبيان والرهبان والشيوخ والعمى ، لأنهم ليسوا من المقاتلة ، ولو كان الجهاد للاكراه لما استثنى هؤلاء . . ولم يبدأ الرسول بقتال اليهود المجاورين له بالمدينة إلا بعد أن تبين له غدرهم ودسائسهم وعدوانهم .

***

أما الهدف من الفتوحات التى تمت فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين ومن بعدهم ، فهو السيطرة على أكبر جزء من الأرض المحيطة بالدعوة لحماية ظهرها ، ولتأمين أهلها ، وقد كانت العقيدة تعرض عرضا على الناس فمن قبلها صار من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن تخلف عنها لم يكره عليها ، وعاش عيشة ملؤها الأمن والاطمئنان .

موقفنا من الجهاد اليوم

مما لا يحتاج إلى مناقشة أن الرسالة الإسلامية هى آخر الرسالات، وأنها ستظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وفرض الجهاد بمثابة حصن لها فوجب أن يرافقها إلى النهاية ولا يتخلى عنها ، وقد أجمع الفقهاء على أن الجهاد إما فرض كفاية وهذا يشمل الفتوحات الإسلامية لتأمين الدعوة ولتوسيع رقعة الدولة الإسلامية ونشر العقيدة نشرا لا إكراه فيه — وإما فرض عين ، وهذا حين يعتدى على المسلمين فى ديارهم . وفى الحالة الأخيرة يحتم على المسلمين جميعا أن يجندوا ليردوا اعتداء المعتدين .

ومما لا يحتاج إلى مناقشة أيضا أن الجهاد اليوم يعتبر فرض عين على المسلمين جميعا ... لأن بلادهم قد اعتدى عليها ، ولا زالت تئن تحت عبء الاحتلال والعدوان الأجنبيين .

واعتذار المسلمين بأن لهم حكومات تسوس أمورهم ، وهى المسئولة عن كل شىء ، اعتذار لن يجدى نفعا ، ولن يعفيهم من عقاب الله ونقمته، لأن هذه الحكومات ليست حكومات شرعية ولا إسلامية بالمعنى الصحيح، بل إنها حكومات مأجورة من المستعمر الغاصب ضد شعوبهم وبلادهم ، ولا يفكرون فى نصرة أوطانهم وتخليصها من نير الاستعمار ما داموا يقبضون الثمن : كراسى الحكم التى تمكنهم من الظفر بسلطة وجاه غاشمين .

والشعوب الإسلامية جمعاء ، مسئولة أمام الله عن استسلامها لحكوماتها الجائرة الصنيعة ، وعن تقاعدها وتخاذلها أمام الاستعمار — الباغى عليها .

إن كثيرا من أصحاب العروش فى الدول الإسلامية تؤيدهم الحكومات الهزيلة . مطمئنون كل الاطمئنان إلى جيوش الاحتلال التى تطأ كرامة أوطانهم بنعالها ، ويعتقدون أنهم سيظلون بخير ما دامت هذه الجيوش المحتلة رابضة لتأديب الوطنيين حين تحدثهم نفوسهم بالثورة ضد العدوان .

ومنهم من يسعى بنفسه لتحتل بلاده ، وتحيط بعرشه رايات الاحتلال ، ليستقر به القرار ولو على حساب وطنه وشعبه المنكوبين ، وليستطيع بعد ذلك أن يحكم حكمه الإقطاعى الجائر . ويستعبد ويستبد ، ويطيش ويفجر فى حراسة المستعمرين الكفار .

ولسنا ندرى لم لا تدب الرجولة فى علماء الدين فى كل بلد مسلم محتل ، ويطلعون على الشعوب المسلمة ببيان جرىء ، يوضحون فيه حكم الله فى إحتلال ديار المسلمين ، وتقاعد الشعوب المسلمة عن مكافحته ، وموقف الحكومات الظالمة من العمل على نصرة البلاد ، فإذا ما استجابت الشعوب لندائهم كان الخير على أيديهم ، وإن لم تستجب أدوا ما عليهم وكفى . . !

***

ويظهر أن علماء الدين فى البلاد الإسلامية لن يفعلوا ، لأن المناصب الحكومية قد أتخمت أفكارهم ، والتزلف إلى الولاة والحكام قد أنساهم أن الإسلام يذوق اليوم الأمرين ، وأن المسلمين على شفا حفرة من النار .

* * *

وبعد . . فما أشبه المسلمين اليوم بالمتخلفين القاعدين والمتحلين الأعذار فى الطور الأول من الجهاد ، وناهيك بما أعد الله لهم من عقاب . .

« فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حراً ، لو كانوا يفقهون — فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون » . (التوبة ٨١—٨٢)

« إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون — يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ، قل لا تعتذروا ، لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم ، وسيرى الله عملكم ورسوله ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون — سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم ، إنهم رجس ، ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون » .

(التوبة ٩٣ — ٩٥)

« يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل — إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ، ويستبدل قوماً غيركم ، ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير » .

(التوبة ٣٨ — ٣٩)

المسلمون على مفترق الطرق

نحن أمام اتجاهين مختلفين اتجاه ديمقراطى زائف ، وآخر شيوعى طائش ، والإسلام على مفترق الطرق يقف ثابتا لا يتأثر بأحد الاتجاهين ، ولا يجوز له أن يتأثر لأن له اتجاها خاصا يسمو عن الاتجاهين ، ويرتفع عن مجاراتهما ، فشتان بين أهدافهما وأهدافه . .

وإذا كنا نعتقد بأن أهداف الإسلام تتخلص فى الخير بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، فإننا لا نعرف لكلتا الجبهتين من أهداف سوى المطامع التى تدفع إلى الرغبة فى تحقيقها أنانية من نوع رخيص مبتذل ، والتى قد يكون من وراء الرغبة فى تحقيقها ويلات تصب على العالم البائس ، والبشرية المنكوبة .

ولسنا بصدد تشريح الكتلين حتى نهتك سترهما ، لنقف على ما خبأتاه من خسة وغدر ، وعبث ولهو .

وإن كنا نعلم أن لكليتهما من أبناء المسلمين عشاقا يتيهون جداً بها ، ولا نستطيع أن نصف عشاق الأولى (الديمقراطية الزائفة) إلا بأنهم خونة فجرة ، وصغار فسقة ، لا يؤتمنون على دينهم ولا على أوطانهم ، ولا يصلحون إلا أذنابا لا قدر لها ولا يعبأ بوجودها — كما لانستطيع أن نصف عشاق الأخرى (الشيوعية الطائشة) إلا بأنهم لهاة عبثة ، تخدعهم الألفاظ المعسولة . والأمانى الكاذبة وتستهويهم العبارات الجوفاء ، والآمال المموهة بطلاء من الزيف .

ولا أقصد أن نتصايح مع المتصايحين الذين ينددون بالشيوعية وهم لا يفقهون عنها شيئا ، ولا يجيدون التفريق بين الشيوعية كدولة سياسية لها مكانتها المرموقة بين جوانب العالم اليوم ، وبينها كمبدأ له أهدافه

وغاياته ، ولكنى أقصد تقريع أولئك الذين لا يفكرون فى أن تكون لهم مكانة تأنف التحيز إلى احدى الكتلتين ، وتأبى إلا أن يكون لها اتجاهها الخاص المستقل .

***

فى الديمقراطية زيف وكذب ونفاق ، وفى الشيوعية نزق وبلبلة وغموض ، فلم نضطر أنفسنا إلى الارتماء فى أحضانهما ، وكلتاهما شر وبلاء وفتنة ، ولم نأبى إلا أن نكون عربات يجرنا قطار إحدى الكتلتين ؟ .

وماذا استفدنا من الديمقراطية الكاذبة حتى نقدم فروض الولاء لها ، ونتمسح بأذيالها ، وماذا استفدنا من الشيوعية حتى نحاول الالتصاق بها ، والتزلف إليها ، إن الديمقراطية هى أصل كل بلاء لحق الشعوب الشرقية المسلمة ، ولا زالت واضعة نعالها فوق أعناقها بغير ما عدالة أو رحمة .

فانجلترا وفرنسا وغيرهما لا زالتا تتوغلان فى بلادنا ، وتنهلان من مواردنا ، وتتبجحان فى ابتلاع حرياتنا ، والتهام استقلالنا ، وتحطيم كرامتنا — وأمريكا زعيمة الديمقراطية الفاجرة ، واقفة موقف الجبان النذل الذى يعز عليه أن يعترض الباطل أو يؤيد الحق والعدل ، ولقد رأينا رأى العين فى مأساة فلسطين كيف استطاعت هذه الديمقراطية الفاجرة ، أن تخرج إلى الدنيا طفلا غير شرعى ، ليتربع على عرش فلسطين الذى صنع من دموع الأرامل والثكالى ، وزفرات اليتامى والعذارى ! .

وإن الشعوب الإسلامية والأقليات المسلمة الواقعة تحت نفوذ الشيوعية لم تكن بأحسن حالا من الشعوب التى استعبدتها الديمقراطية الزيفاء . .

إذن فالارتماء فى أحضان إحدى الكتلتين مهزلة من المهازل التى تخفى وراءها كل شر ، ومن الخير أن نعتد بأنفسنا ، وأن يكون للدول المسلمة كتلة إسلامية قوية ، لا تعادى الكتلة الشيوعية ، لأنه لا داعى

لمعاداتها . ولا تمالىء الكتلة الديمقراطية لأنها أحقر وأخس من أن تمالأ أو يتزلف إليها .

ويجب أن تؤسس هذه الكتلة الإسلامية الشعوب بعد أن تلفظ وتنبذ الساسة المحترفين ، والزعماء الدخلاء الذين قذفت بهم إلى ميدان السياسة والزعامة أحط الظروف وأخسها . . وكل بناء تشيده الشعوب بأيديها لا بد أن يكون بناء رصينا لا تزلزله أقوى العواصف .

ويجب أن تكون مهمة الكتلة الإسلامية أولا وقبل كل شيء موقف الحياد بين الكتلتين المذكورتين . . الحياد التام النزيه الذى يصون للكتلة هيبتها ويحفظ لها كرامتها ، ويحوطها بسياج من الرجولة والشهامة والإباء .

ويجب أن تكون مهمتها الثانية . النظر السريع فى قضايا الشعوب المسلمة المعذبة ، وإخراج ملفاتها من أروقة هيئات اللوص ومحاكمها بعد أن أكل التراب منها ما شاء له أن يأكل .

ويجب أن تكون مهمتها الثالثة مواصلة الجهاد حتى يتحقق لكل شعب مسلم استقلاله التام الخالص ، وترد إليه حريته كاملة غير منقوصة .

وقد يقول قائل : إن تكوين الكتلة يجعلنا فى مسيس الحاجة إلى العدة والسلاح ، وإن الدول الديمقراطية لا بد أن تقف عقبة كأداء فى سبيل تهيئة الفرصة لتسليحنا ، وهى صاحبة الأمر من غير ماشك .. ونحن نقول لهذا القائل : حين تكون الكتلة الإسلامية الفتية ، ويوهب لها رجال أباة ؛ وزعماء صادقون ، وتؤيدها الشعوب قاطبة ، سوف تضع حدا لعنجهية الديمقراطية وغلوائها ، وسوف تسحق أنفسها بنعالها ، وسوف تقرر شراء السلاح من روسيا وغيرها من أعداء الديمقراطية الزائفة .

وكما أن تشرشل (العجوز الاستعماري) قال : نحن مستعدون لمحالفة الشيطان لمكافحة أعدائنا — فالكتلة الإسلامية أيضا مستعدة كل الاستعداد لمحالفة النازية والشيوعية وغيرهما لمكافحة أعدى أعدائها ، وستكون حينئذ أنبل أسلوبا وأشرف غاية من العجوز الاستعماري البغيض.

إن الكتلة الإسلامية لا يمكن أن تتأثر بالمبدأ الشيوعي لأن لها مبدأ هو أسمى من كل مبدأ ، وهي معتزة به كل الاعتزاز ، ولكنها لن تمانع في محالفة روسيا الدولة لتحطم أنف الديمقراطية المعتدية الباغية على بلادها وشعوبها . . !

***

ولا أظن أن يفكر الدخلاء من أصحاب العروش والزعماء والساسة في التزلف إلى انجلترا وغيرها مثلا ، بعد تكوين الكتلة الإسلامية ، لأنه لن تكون لدول الديمقراطية أصابع تمتد من وراء ستار لتتدخل في شئون بلد من بلاد الكتلة الإسلامية ، ولن تكون لها القوة التي تمكنها من أن تولي الحكم من تشاء وتعزل من تريد . . وبذلك تستقيم الأمور ، وتستمد القوة من تأييد الشعوب وثقتها ، وتتبدل الأحوال من حسن إلى أحسن ، ومن طيب إلى أطيب إن شاء الله تعالى .

ولا بد من إشارة خفيفة إلى محاولة صغيرة تدبر في الخفاء ككل محاولة هزيلة لا يقصد منها مصلحة البلاد . وزعيم هذه المحاولة هو أمين الجامعة العربية ، فهو يسعى الآن سعيا متواصلا — بأمر السادة الإنجليز والأمريكان طبعا — ليمهد إلى تكوين حلف إسلامي يضم الشعوب الشرقية ، ويقوم الآن بزيارة الدول العربية وتركيا ، ومهمة هذا الحلف الإسلامي المزعوم أن يضم الدول العربية المستعمرة وتركيا الخاضعة لنفوذ السادة المستعمرين ، وليكون بعدئذ على أتم الاستعداد لمناصرة هؤلاء السادة المستعمرين إذا

ما جاءت ساعة الخطر ، وليقوم فى غير أوقات الخطر بمكافحة الشيوعية باسم الإسلام . . . الإسلام الأعرل ليكون مخدرا ومضللا بعد أن كان موقظا ومنبها .

ولم لا يسعى أمثال عزام باشا لضم الباكستان والأفغان وغيرهما إلى الحلف الإسلامى المزعوم . . إذا كان يقصد خدمة الإسلام والمسلمين حقا ؟

إنه مؤتمر بأمر السادة الإنجليز والأمريكان . . وهم يعلمون علم اليقين أن انضمام الباكستان والأفغان مما يجعل المشروع جديا له خطره على حياة الاستعمار فى الشرق .

وأخيراً . . فليسع عزام باشا سعيه المتواصل ، وليقدم إلى السادة فضلا يضم إلى أفضال الجامعة العربية ، وليثق كل الوثوق أن مآل مشروعه التلاشى والفشل ، وسوف يكون سعيه عليه وعلى السعادة حسرة . . . ثم يغلبون . . . !

«فأما الزبد فيذهب جفاء .. وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض .. والله غالب على أمره » .

وبعد

فلم تكن هذه التحقيقات جديدة فى موضوعها ، فالإسلام كما أراد الله — دين ودولة ومصحف وسيف . وليس فى ذلك شك

ولكن يظهر أن إعراض المسلمين عن معانى الإسلام وأهدافه ، جعل بينهم وبين الإسلام حجاباً كثيفاً . . وأن حماقة بعض المتمدنين ، وفلسفة ذوى المناصب وأرباب المصالح ، أبت إلا أن تساهم بقسط وفير فى بلبلة أفكار المسلمين تطفلا وعنتا

ولست أدرى كيف ينكر إنسان مسلم أن الإسلام دين يهدف إلى رقى الإنسانية وتحرير أفكارها ، ودولة تهدف إلى تكوين خير أمة أخرجت للناس ، ومصحف ينتظم شئون المسلمين وأمورهم ، وسيف تصان به حياتهم ، ويذاد عن بيئتهم ، ويحفظ لهم حريتهم وكرامتهم .. اللهم إلا إذا كان هذا الإنسان معتوهاً يعيش منذ ولادته فى دنيا المجانين ..

إن الحلقة المفقودة فى الموضوع هى أن المسلمين اليوم يعيشون بعيدين كل البعد عن روح دينهم ، وحين تشرب نفوسهم روحه ، تستعد كل الاستعداد لأن تستجيب لله وللرسول إذا دعوا لما يحييهم ..

ومن الميسور أن نكتب ونبحث ونحقق . ولكن ليس من الميسور أن نقبل ونعمل وننفذ ، وماذا تجدى الكتابة والبحث والتحقيق إذا لم يتبعها القبول والعمل والتنفيذ ؟

إذن فما حيلتنا . . . ؟

ونحن لا نملك غير القلم واللسان ، وهما سلاح العجزة أمام القوة فى هذه الأيام . . . !

وقد يستطيع القلم واللسان أن يكونا قوة تجرف أمامها أقوى القوى، ولكن حين يوجد الشعب الذى يستجيب لهما ، ويرغب فى الحياة الأبية الكريمة . .

وهلا يملك المسلمون المعذبون المشردون اليوم ألسنة وأقلاما ، وأليست الشعوب المسلمة مستعدة للاستجابة لهما ؟

نعم : إن للمسلمين المستعبدين ألسنة ما أكثر ثرثرتها ، وأقلاما ما أكثر صريرها ، ولكنها هيهات أن تعمل لتحريك الشعوب ، وإيقاظ الحق لمواجهة الباطل ، لأنها تعمل للنفاق فى أوسع ميادينه ، وللتزلف بما أوتيت من انحدار وتبذل ...

إننا متفقون ..

متفقون على أن الأمة الإسلامية اليوم تعسة غير سعيدة ، قلقة غير مطمئنة ، مهينة غير كريمة ، واهية غير قوية ، وعلى أن أوطانها معذبة ، وشعوبها مستعبدة ، وأمانيها ضائعة ...

متفقون على هذه وغيرها ...

ومتفقون على ألا أمل إلا فى الشعوب ، فإرادتها لن تقدر على تحطيمها قوة فى الأرض ، وعزمتها لن تصمد أمامها الجبال الرواسى .

ولكن هذه الشعوب فى أمس الحاجة إلى القيادة والتوجيه ، وليس من المعقول أن يتصدى مشايخ الطرق الصوفية للقيادة والتوجيه ، وحرفتهم أشبه بالجراثيم تنشر المرض فى جسم الأمة .

وليس من الضرورى أن يتصدى علماء الدين للقيادة والتوجيه ، إذا كانوا لم يتفرغوا بعد من مسائل التوسل والكرامة وما إليهما من المسائل التى لا يقف الجدل والنقاش فيها عند حد .

وإذا كانوا لم يتحرروا بعد من النفاق المزرى ، والرياء المهين والتزلف البغيض ، وغير ذلك مما ينفر الشعوب منهم ، ويجعلها تؤثر الصمم على أن

تسمع لهم ، وتؤثر العمى على أن تقرأ لهم ، ويشعل بينها وبينهم نار العداء الصامت ، والبغض الدفين ، والاستنكار الخفى . .

إذن فالمسألة محتاجة إلى أن يتولى توجيه الشعوب قادة يؤمنون بالفكرة الاسلامية وأهدافها ومعانيها إيماناً راسخا ، ويضحون من أجلها تضحية لا يعتريها وهن ، ويتفانون تفانيا لا يختلجه تقهقر ، إذ لا فائدة فى نضال لا يؤيده إيمان ، ولا فى كفاح لا ينصره تفان وتضحية . .

ومتى وجدت القيادة السليمـــة ، توفر فى الشعوب الجهاد والتضحية والإيمان .

وقد يقول قائل : ألا يكفى أن تتولى الأحزاب السياسية فى الشرق قيادة الشعوب . ؟

ونحن نقول لهذا القائل : إن التجارب دلت على فساد هذه القيادة وفشلها ؛ إذ أنها تعمل فى حيز ضيق لتصل إلى أهدافها التى تتخلص فى كراسى الحكم ، ولا تهمها أمانى الأوطان وقضاياها ، وآمال الشعوب بقدر مايهمها الحكم ومناصبه .

ثم إن هذه الأحزاب السياسـية الفاشلة بعيدة كل البعد عن روح الإسلام ، وهى لم تعمل من أجله شيئاً ولا تود أن تعمل ، لأنها تعتقد أن الكلام عن الإسلام وأمته ضرب من ضروب الشعوذة فى القرن العشرين ، ومادامت هذه القيادة لا تعترف بالإسلام كدين ودولة ومصحف وسيف ، فإنه لا يمكن أن نعترف بها أو نقيم لها وزنا ، وإن كانت فى هذه الظروف ليست فى حاجة إلى اعترافنا بها ، لأنها قانعة باعتراف الغاصب المستعمر ، الذى يستغلها أداة صماء .

إننا لا نعترف إلا بقيادة تعمل للاسلام كله ، ولوطنه جميعه ، وتثير الحمية فى الشعوب المسلمة لتستعيد مجدها ، ولتخليص الوطن الإسلامى بأسره من ربقة الاستعمار ، ولجمع شتات المسلمين المبعثرين تحت راية دولة

موحدة ، هذه هى القيادة التى نؤمن بها وندعولها ونكافح تحت بنودها ، ونفتديها بمهجنا ، ونبذل من أجلها دماءنا .

. إننا لا نؤيد حركة ليس طابعها الإسلام ، سواء أرضى المتجبرون أم كرهوا ، لأننا نؤمن بالإسلام مباركا فى كل حركاته .

* * *

إننا ترفض القوميات الهزيلة ، والمحاولة السياسية الاستعمارية الدنيئة ، ونرفض أن يكون غاية المصريين الاتحاد مع السودان ، وغاية العراق والأردن تحقيق مشروع سوريا الكبرى ، وغاية الباكستان ضم كشمير وحيدر أباد إليها ، وغاية الليبين وحدة ليبيا ... لاننا نريدها كتلة اسلامية تضم بلاد المسلمين جميعها ، وترفع من شأن الأقليات المسلمة المبعثرة فى بقاع الأرض ، نريدها كتلة إسلامية شاملة ، قوية الشوكة مسموعة الكلمة مهابة الجانب ، فتستطيع أن تأخذ بيد مصر والسودان والأردن والعراق ضد انجلترا ، وبيد أقطار ليبيا وشمالى أفريقية ضد الفرنسيس والطليان والأسبان والإنجليز ، وبيد أندونيسيا الحرة المكافحة ضد هولاندة ، وبيد الباكستان ضد الهندوك . .

نريدها دولة مسلمة موحدة ، تحقق العدالة الاجتماعية بين الشعوب الإسلامية قاطبة ، وتصون حريتها وكرامتها فى سياج من القوة والمهابة ، وترفع من أقدارها لتجلس فى المكانة اللائقة بها بين أرقى الشعوب وأعظمها .

هذا ما نبتغيه ، وهو الحق الذى لاجدال فيه ، والذى يحلو للكثيرين أن يواروه عن الأعين ..

يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ؟

السماك

مراجع الكتاب

١ – كتاب الله تعالى
٢ – السنة الصحيحة
٣ – تفسير المنار
٤ – المغنى لابن قدامة
٥ – إحياء علوم الدين . . . للغزالى
٦ – زاد المعاد لابن القيم الجوزى
٧ – أعلام الموقعين لابن القيم الجوزية
٨ – العدالة الاجتماعية لسيد قطب
٩ – الإسلام والرد على منتقديه للإمام محمد عبده
١٠ – لماذا تأخر المسلمون ؟ للأمير شكيب أرسلان
١١ – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسن الندوى
١٢ – الآراء والمعتقدات } للدكتور غوستاف لوبون
١٣ – روح الثورات
١٤ – رسائل الإصلاح للسيد محمد الخضر حسين
١٥ – السياسة الشرعية لعبد الوهاب خلاف
١٦ – اجتهاد الرسول لعبد الجليل عيسى
١٧ – أبو ذر الغفارى لعبد الحميد جوده السحار
١٨ – الرق فى الإسلام لأحمد شفيق باشا

الفهرس

الكتاب التالى

المسلمون على مفترق الطرق

الناشر

مكتبة وهبة خلف قسم عابدين

١٤ شارع إبراهيم باشا — القاهرة

الثمن ١٠ قروش